خطَاب ذَوِي العِلَل في الثقَافَة العَربية
بحثٌ في المرجِعيَّات الثَّقافيَّة والمَنَازِع الجَمَاليَّة

تاريخ الإرسال 2020/ 1/15 — تاريخ القبول 2020/8/22

د. الحسين اخليفة(*)

الملخّص

تتلخص فكرة البحث في إلقاء الضوء على خطاب ذوي العلل، واستخلاص أبعاده وتجلياته المعرفية والجمالية، مثلما تبدَّت في كتابات العرب قديما وحديثا. يندرج الحديث عن خطاب العلل وأصحابها في الموروث الثقافي العربي أول الأمر في نطاق الانشغال العلمي بالتأريخ لرجالها، وتعقُّب أنسابهم وتراجمهم وأخبارهم وسيرهم وطبقاتهم. ثم اتخذ فيما بعد منحى إصلاحيا تقويميا إنسانيا، يروم الانتصار لأصحابه، وتثمين جهوذهم العلمية والثقافية؛ باعتبار أن هذه الفئة الاجتماعية استطاعت مقاومة مظاهر الاستسلام واليأس والإحباط، والانخراط القوي في الحياة، بالرغم من تعرضها لضروب الإعاقة، ومكابدة آثارها الجسدية والنفسية. وقد صار هذا الخطاب في الزمن الراهن يترجم جسور التواصل بين الثقافتين العربية والغربية، ويعكس الانشغالات الإنسانية المحكومة بخطابات حقوقية وقانونية وجمالية ونقدية عالمية تقاسمتها الشعوب مجتمعة في ظل العولمة والحوار الثقافي والحضاري والمعرفي بين الأنا والآخر. وقد تناولت الدراسة الموضوع من ثلاث زوايا: تشخيصية منصرفة إلى ملامسة الجوانب المعرفية والعلمية في العاهة، ورصد أنواعها وأسبابها وآثارها. وزاوية تصويرية تسعى إلى استقصاء بعدها الأدبي المتمثل في الوعي التاريخي بالموضوع، والتقييم التخييلي لمواهب أصحاب العاهات وطاقاتهم المتجددة. ثم زاوية تحسينية تترجم الانتصار الأدبي والثقافي والاجتماعي لذوي العاهات، ومساندتهم في محنهم.

(*) باحث مغربي في السرديات والنقد الأدبي وعلوم التربية.

Abstract

The main of this research is summarized in the definition of handicap literature and its cognitive and artistic dimensions, as in the writings of the ancient Arabs such as Al-Jahez, Ibn Qutaiba, Ahmad ibn Ali Ibn Babah, Ibn al-Jawzi and Salah al-Din al-Safadi. Talking about the subject of disability and the disabled in general falls within the scope of Arab culture. It focuses on the history of its men, and tracks their genealogy and their translations and their careers and sosial status. Neverthless, whoever carefully studies the literature on the subject, also finds it to be interested in the rooting of what can be called literature disability. It advocates for the disabled, and shows appreciation for their scientific and cultural contributions and strong engagement in life despite the vulnerability, the physical and psychological pressure, the despair and the frustration, of this social group.

This study addresses the topic from three angles :

- A diagnostic approach to look at the cognitive and scientific aspects of the defect, and the monitor types, causes, and the effects .
- An illustrative angle seeking to investigate the literary dimension of the historical awareness of the subject, and the ingenious evaluation of the talents of disabled people and their sustainable strength .
- An appreciative angle that translates the literary, cultural and social triumph of the disabled.

خطَاب ذَوِي العِلَل في الثقَافَة العَربية

بحثٌ في المرجِعيَّات الثَّقافيّة والمَنَازِع الجَمَاليَّة

مقدمة

يشكل الأشخاص أصحاب العلل إحدى الفئات الاجتماعية التي نالت نصيبا وافرا من الاهتمام الإعلامي والعلمي في العقود الأخيرة، لاسيما بعد صدور نص الاتفاقية الدولية لحقوق الأشخاص ذوي الإعاقة في بداية الألفية الثالثة. وبالرغم من تنوع تسميات هذه الفئة، وتباين الاصطلاحات التي توصف بها كما سيأتي بيانه، فإنها تطلق –كما ورد في نص الاتفاقية– على "أولئك الذين لديهم إعاقات بدنية أو عقلية أو ذهنية أو حسية طويلة الأجل، تحول دون المشاركة مشاركة كاملة وفعالة في المجتمع على قدم المساواة مع الأسوياء".

وقد نسج حول هذه الفئة وانشغالاتها الطبية والاجتماعية والحقوقية والقانونية والإبداعية خطاب يضرب بجذوره في عمق الثقافة العربية القديمة، مع تباين في زوايا الرؤى وجهات التناول وتنوع في المقاصد والغايات. ذلك أنه محكوم على امتداد تاريخه بخلفيات فكرية متراوحة بين منزع الفكاهة والتندر والسخرية، وتعقب المثالب والعيوب مثلما نجد عند الهيثم بن عدي (ت207هـ) ذي النزعة الشُّعوبية، وأبي حيان التوحيدي، وعبد الرحمن ابن الجوزي (ت597هـ)، والمنزع الإصلاحي والأخلاقي الرامي إلى كشف بعده الإنساني والشرعي، وبيان مظاهر النبوغ والعبقرية والذكاء والإبداع عند أصحابه، على غرار ما نجده عند الجاحظ (ت255هـ) وصلاح الدين الصفدي (ت764هـ).

ثم المنزع الحقوقي والخيري والإعلامي والجمالي المنخرط في مشروع فكري ثقافي، يروم نصرة فئة ذوي الاحتياجات الخاصة، وتثمين كفاءاتهم وإمكاناتهم الثقافية والاجتماعية والإبداعية، مثلما بلورته الكتابات الحديثة والمعاصرة؛ من قبيل (في عالم

المكفوفين) لأحمد الشرباصي، و(سيكولوجية ذوي العاهات) لمختار حمزة، و(العمى والسيرة الذاتية: دراسة في كتاب "الأيام" لطه حسين) لفدوى مالطي دوكلاص، و(عين الشمس: ثنائية الإبصار والعمى من هوميروس إلى بورخيس) لعبد الله إبراهيم، و(شعر العميان: الواقع، الخيال، المعاني والصور الفنية) لنادر مصاروة.

ويثير هذا الخطاب في عمقه إشكالات وقضايا عميقة تترجم الوعي العربي في امتداده التاريخي بهذه الفئة، وتجسد مواقفه منها. ولعل من أجلها قضية المصطلح، والحقوق والواجبات، والخصوصيات السلوكية والنفسية والإبداعية لذوي الإعاقة، وأثر العاهة في تصورهم للحياة والأحياء وتصرُّفهم مع غيرهم من الأسوياء، وطرائق تحدّيهم لظروف الإعاقة ومداراتها والاحتجاج لها، وحدود قدرتهم على تحمل الانعكاسات الصحية والنفسية التي تترتب على الإصابة بها في سبيل الاندماج الفاعل في المجتمع.

وسنقارب هذه الجوانب كلها في هذا المقال، مستندين في ذلك إلى رؤية منهجية قائمة على فحص خطاب الإعاقة في أسسه المعجمية والمفهومية، ودراسة تشكلاته التاريخية وسيرورته التطورية، واستقراء أبعاده الاجتماعية والثقافية والإنسانية، واستجلاء أدبيَّته في الثقافة العربية من خلال أربعة مستويات: اصطلاحي، وتشخيصي، وتصويري، وتحسيني.

1-المستوى الاصطلاحي:

تطرح المنظومة الاصطلاحية التي يتأسس عليها خطاب ذوي العلل إشكال التسمية؛ إذ يطلق على هذه الفئة الاجتماعية تسميات واصطلاحات مختلفة، منها ما رسخته المصنفات العربية القديمة المهتمة بهذا الخطاب مثل "أصحاب العلل"، و"ذوي العاهات"، ومنها ما تتداوله اليوم الصحف ووسائل الإعلام والمواثيق الدولية؛ من قبيل "المعاقين"، و"المعوَّقين"، و"الأشخاص ذوي الإعاقة"، و"الأشخاص ذوي الاحتياجات

الخاصة"، و"أصحاب التحديات"، و"العجزة"، و"متحدي الإعاقة"، و"إنسان مع إعاقة" (Person with disability)، و"أولي الضرر"، وغيرها من الألفاظ والمصطلحات.

يقربنا الباحث يدير أكيندي في مقاله الموسوم بعنوان (الإعاقة.. تعاريف ومصطلحات)[1] من قضية المصطلح ومظاهر تسيّبه وانسيابه، وإن لم يستطع في مقاله المقتضب أن يدرسه دراسة علمية دقيقة تكشف الفروق المفهومية بما فيه الكفاية، بين مجمل التعابير والألفاظ المستعملة فيه. هكذا –وتبعا للطابع الإعلامي الذي يكتنف مقاله– لم يكن مسترشدا بالمعاجم اللغوية والاصطلاحية والسياقات الاستعمالية لمصطلحاته وتعريفاته، بقدر ما كان يستنير بذوقه الانفعالي وحسه الانطباعي. ولا أدل على ذلك من رفضه لألفاظ من قبيل: "المعوَّقين"، و"المعاقين"، و"ذوي الاحتياجات الخاصة"، و"العجزة"، و"أصحاب العاهات"، و"متحدي الإعاقة"، واقتراحه لفظ "الأشخاص ذوي الإعاقة" الذي تبنته الأمم المتحدة عند تحريرها نص الاتفاقية الدولية لحقوق الأشخاص مع الإعاقة.

ومسوِّغه في ذلك أنه مُسعِف على الانتقال من النموذج الفردي إلى النموذج الشمولي، بتركيزه على الشخص لا على الإعاقة. وهو فهم غير سليم، بناء على أن الشخص في هذا المصطلح المركب غير منفصل عن الإعاقة التي تمثل سبب معاناته. كما أن الصفة في اللغة العربية تغني عن ذكر الموصوف؛ الأمر الذي يفرغ من دلالته تشديدُ الباحث على تضمّن المصطلح للموصوف "الأشخاص" متبوعا بالصفة "ذوي الإعاقة"، ورفضه لاستعمال الصفة معزولة عن الموصوف. ثم إن الباحث يرفض مصطلح "ذوي الاحتياجات الخاصة" الذي تبنته دول عربية رسميا، مثلما ورد في الفصل

(1) – منشور بالصحيفة الإلكترونية المغربية "هسبريس"، يوم الاثنين 29 فبراير 2016، على الرابط الآتي: https://www.hespress.com/opinions/296750.html

الرابع والثلاثين من الدستور المغربي المعدل سنة إحدى عشرة وألفين. ومبرر لفظه أنه "تعبير مضلل يعبر عن كل شخص لديه احتياج خاص، وهو ما ينطبق على الناس جميعا"، والحال أنه لفظ مهذب يضمن –بالرغم من عدم دقته العلمية– كرامة هذه الفئة الاجتماعية التي يسعى الباحث إلى مناصرتها في مقاله.

ويثير أحمد الشرباصي هذا الإشكال كذلك في دراسته بعنوان (في عالم المكفوفين)، وإن اقتصر في

ذلك على دائرة المكفوفين، دون ما عداهم من أصحاب العلل وذوي الإعاقة. يرى أن الألفاظ المستعملة في التعريف بالشخص الذي فقد بصره؛ من قبيل "الأعمى"، و"الأعمه"، و"الضرير"، و"العاجز"، و"المكفوف"، و"الكفيف"، لا يحسن منها لإطلاقه على الكفيف في نظره سوى المكفوف أو الكفيف، مستعينا في ذلك بالمعاجم اللغوية العربية[1].

ولما كانت دراستنا منصرفة في المقام الأول إلى تأصيل خطاب ذوي الإعاقة في التراث العربي، ورصد سماته وملامحه التطورية إلى أن اتخذ صورته الراهنة، فإننا نرتضي من المصطلحات ما كان متداولا عند القدماء، شريطة أن يساير رؤيتنا الفكرية والمنهجية المحكومة بقواعد البحث العلمي الأكاديمي. يحضرنا في هذا المضمار مصطلحان؛ هما "أصحاب العاهات" و"ذوو العلل". تطلق العاهة في اللغة على «الآفة التي تصيب الزرع والثمار فتفسدها». ثم انتقلت الآفة من منبتها الأصل الذي هو الزرع –على ما يبدو– إلى الحيوان كالإبل، مثلما جاء في الحديث النبوي «(لا *يوردنَّ ذو*

(1) – ينظر الكتاب، مطبعة نهضة مصر القاهرة، ط1، 1956م، ص18-22.

عاهة على مصحّ)؛ أي لا يورد مَن بإبله آفة من جرب أو غيره»[1]. واتخذت الإنسانَ فيما بعد محضنا من محاضنها، ذلك أن السلامة «أن يسلم الإنسان من العاهة»[2].

ولعل العاهة في دلالتها المعجمية لا تنصرف على الدوام إلى التشوهات الجسدية والعيوب الخلقية، بل تستعمل أحيانا لوصف المزالق الفكرية والمغالطات العقلية والوجدانية، مما يتنافى مع منطق التفكير السليم والتأويل السديد. هكذا نجد عباس محمود العقاد يستعمل العاهة بهذا المدلول الأخير في كتابه (مذهب ذوي العاهات). ومهما يكن فإن هذا المصطلح كان متداولا كثيرا عند الموسوعيين القدماء، من أمثال زكرياء بن محمد بن محمود القزويني (ت862هـ) في كتابه (مفيد العلوم ومبيد الهموم)[3].

أما العلة فتفيد –حسب أحمد بن فارس– ثلاثة أصول دلالية؛ "أحدها تكرّر أو تكرير، والثاني عائق يعوق، والثالث ضَعف في الشيء. فالأول العَلَل، وهو الشربة الثانية، ويقال: علَل بعد نهَل، ويقال: أعل القوم، إذا شربت إبلهم عللًا (..). والثاني العائق يعوق، قال الخليل: العلة: حدث يشغل صاحبه عن وجهه، و يقال: اعتله كذا، أي اعتاقه (..). والأصل الثالث العلة المرض، وصاحبها مُعتل"[4]. وممن استعمل من القدماء هذا المصطلح –معطوفا على مصطلح العلة بالصيغة الجمعية– شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (ت850هـ) في الباب الثمانين الموسوم بعنوان (في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء، وما جاء في السنة من العيادة وما أشبه ذلك) من كتابه

(1) - *ابن منظور:* لسان العرب، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط3، 1939م/ عوه.
(2) - *ابن فارس:* معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط2، 1969م/ سلم.
(3) - تنظر أبوابه: الحادي عشر (في ذوي العاهات)، والثاني عشر (في عاهات الأشراف العور)، والثالث عشر (في العاهات أيضا والإضافات)، تحقيق وتقديم محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1985م، ص363-366.
(4) - معجم مقاييس اللغة/ علل.

(المستطرف من كل فن مستظرف)[1]، وابن المبرد (ت909هـ) في كتابه (الضبط والتبيين لذوي العِلِلِ والعاهاتِ منَ المحدِّثين).

ويبدو أن مصطلح العلة كان الأنسب في تقديرنا للحديث عن انشغالات هذه الفئة الاجتماعية من ذوي الإعاقة؛ وذلك لسببين: أحدهما مرتبط بشموله المعجمي وانفتاحه الدلالي، وقدرته على استيعاب أحوال هذه الفئة وهمومها وانشغالاتها المتراكبة، وثانيهما لقَدامته وتجذره في الموروث الثقافي العربي. يدل على ذلك استخدامه الواسع في علم الحديث[2]، قبل أن يهاجر إلى علوم وحقول معرفية أخرى؛ مثل علم أصول الفقه، والنحو، والقراءات، وعلم الكلام، والفلسفة، والأدب.

2-المستوى التشخيصي:

لقد تناول الهيثم بن عدي (ت207هـ)[3]، والجاحظ (ت255هـ) في (كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان)[4]؛ وابن قتيبة (ت276هـ) في كتابيه (المعارف)[5] و(عيون الأخبار)[6]، وأبو العباس أحمد بن علي بن بابه القاشي (ت510هـ) في (رأس مال النديم في تواريخ أعيان أهل الإسلام)[7]، وابن الجوزي (ت597هـ) في (تلقيح فُهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير)[8]، وصلاح الدين

(1) ـ تحقيق محمد خير طعمه الحلبي، دار المعرفة بيروت، ط5، 2008م، ص716-723.
(2) ـ فهو عند جمهور المحدثين: "عبارة عن سبب غامض خفي يقدح في صحة الحديث، مع أن الظاهر السلامة منه"، ينظر كتاب أبي سفيان مصطفى باحو (العلة وأجناسها عند المحدّثين)، مكتبة الضياء طنطا، ط1، 2005م.
(3) ـ ينظر كتاب (البرصان والعرجان والعميان والحولان)، ص 566-568.
(4) ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، ط1، 1990م.
5- تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف القاهرة، ط4، د.ت، ص578-589.
(6)- ينظر جزؤه الرابع (كتاب النساء)، مكتبة دار الكتب المصرية القاهرة، ط2، 1996م.
(7)- دراسة وتحقيق محمد عبد القادر خريسات مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ط1، 2002م، ص56، 93، 193.
(8)- شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1997م، ص324-328.

الصَّفدي (ت764هـ) في (نَكْت الهِمْيان في نُكَت العُميان)[1] و(الشعور بالعُور)[2]، والأبشيهي (ت850هـ) في (المستطرف) وغيرهم، موضوع العلل والمصابين بها، لكن تناولهم لا يعدو عملا ترجميّا، يتوخى رصد أسماء أصحاب العلل الأشراف، والتعريف ببعضهم. وكان الجاحظ والصفدي والأبشيهي قد اهتموا –موازاة مع هذا الجهد العلمي الكامن في الترجمة– بتشخيص مفصَّل لأحوال أصحاب ذوي الإعاقة، وتبيان أنواع إعاقتهم وأسبابها ووسائل علاجها، وتصوير ظروفهم الاجتماعية والنفسية والإبداعية ومظاهر تحدِّيهم لها، واستثمارها في سبيل الإنتاج والإبداع والابتكار في ميدان أو أكثر من ميادين الحياة. ولعل إجراءهم التشخيصي على تفاوت أهميته، يتأسس –فيما نحسب– على العناصر الآتية:

1.1–النوع:

يقربنا عمرو بن بحر من أنواع العِلة وضروب ذَويها، في معرض الرّد على من طلب منه أن يضع له كتابا في الموضوع، فيقول مستجيبا لطلبه ومنهجيته في الكتاب كما اقترحها: «وسألتَني أن أبدأ بذكر البُرصان، وأثَنِّيَ بذكر العُرجان، ثم أذكر ما قالوا في الأيمن والأعسر، وفي الأَضبط، وفي كل أعسرَ يَسَرَ، واختلاف طبائع الحيوان في ذلك مع اختلاف حالات البشر في الصِّغر والكِبر. وكيف القول في الأَشلِّ والأقطع، وفي الأضجم والأفقم، وفي صاحب اللَّقوة والأَشدق، وفي سَعة الأَفواه وضيقها، وفي عِظم الأنوف وصغرها. وكيف مدحوا الرؤوس بالعِظم، وذمُّوها بالصغر، وما قالوا في الدّمامة والنَّبالة، وفي القصر والطول، ثم الذين قالوا في الأجلح والأنزع، وفي الأصلع

[1]- المطبعة الجمالية بمصر، طبع بأمر اللجنة التحضيرية للمؤتمر الرابع لتحسين حالة العميان، سنة 1329هـ.
[2]- تحقيق عبد الرزاق حسين، دار عمار للنشر والتوزيع عمان، ط1، 1988م.

والأقرع، وفي الأَزعر والأَمعر. وما قالوا في الثَّطِّ والسَّنُوطِ، وفي الأحدب والأَعلم، وفي الآدَر والأفقح. وما ذكروا به الأعضاء، ووصفوا به الجوارح»[1].

وميَّز ابن قتيبة بين العُميان، والحُولان، والزُّرق، والفُقم، والصُّم، والعُرج، والجُدع، والصُّلع، والبُرص، والبُخر، والجَذمى، والسودان، والكواسج الذين لا يملكون الشعر على عوارضهم، والمكافيف. واكتفى ابن الجوزي بسرد ما ساقه قبله ابن قتيبة في هذا الباب، سردا موجزا مقتضبا. ثم إن القاشي اكتفى بذكر أسماء أشراف العُميان، وأهل العلل من الملوك، ومن فقد عينه من الأشراف في الحرب. كما اقتصر الصفدي في الحديث عن أصحاب العلل على فئة العميان، فقدم معلومات علمية وافية خاصة في مقدمة كتابه عن العمى وأنواعه، وأسبابه، ومن ابتُلي به. وسنتوسل بالجدول الآتي لرصد صور الإعاقة وأشكالها وأنواعها، مثلما أوردها هؤلاء في تآليفهم:

العِلة	دلالتها[2]	موطنها في الذات
الآدر	عظم الخصية من فتق أو غير فتق	الخصية
البخر	رائحة كريهة تنبعث من الفم	الفم
البرص	بياض يقع في جسد الإنسان	الجسد
الثَّطَط	قلة شعر اللحية	اللحية
الجدع	بتر أو قطع في الأنف	الأنف
الجلْح	انحسار الشعر عن جانبي الجبهة مع زيادة.	الرأس
الحدب	دخول الصدر وخروج الظهر	الصدر والظهر

[1]- كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان، ص 36-37.
[2]- استعنا في تحديد المحتوى المدلولي للعاهة بمعجم ابن منظور (لسان العرب).

الحول	خلل في حاسة البصر	العين
الدَّمامة والنبالة	الضآلة والقلة	الجسد
الزرق	زَرِقت عينه تَزرَق زَرَقا، بمعنى أَن يتغشَّى سوادَها بياضٌ.	العين
الزعَر	قلة شعر الرأس وتفرقه وبروز الجلد	الرأس
سَعة الأفواه وضيقها	–	الفم
السنَط	خلو الوجه من الشعر	الوجه
السواد	نقيض البياض.	الجسد
الشَّدق	اتساع الشدق وميوله	الشدق
الشلل	يُبس اليد وتصلبها واستعصاؤها على الحركة.	اليد في الأصل
الصلَع	خلو الرأس من الشعر	الرأس
الصَّمم	تعطل حاسة السمع عن الاشتغال	الأذن
الضبط	العمل باليدين معا، وهو نفسه العسر واليسر	اليدان
الضجم	اعوجاج الأنف وميله نحو أحد الجانبين	الأنف
العرج	الاعوجاج والانعطاف في المشي	الرجلان
اليمن	العمل باليد اليمنى واستخدامها أكثر من اليسرى.	اليد اليمنى
العسر	العمل باليد اليسرى واستخدامها أكثر من اليمنى.	اليد اليسرى
العسر واليسر	العمل باليدين معا، وقوة اليد اليمنى مساوية لقوة اليد اليسرى.	اليدان
عِظم الأنوف وصغرها	–	الأنف
عظم الرؤوس وصغرها	–	الرأس
العلَم	الشق في الشفة السفلى	الشفة السفلى
العور	خلل في حاسة البصر	العين

الفقْح	اتساع حلقة الدبر	الدبر
الفقَم	خروج اللّحي الأسفل ودخول الأعلى إلى الخلف.	اللحيان
الفلج	الشق في الشفة العليا	الشفة العليا/ الرجلان
القرَع	وجود دماميل في الرأس	الرأس
القصر والطول	–	القامة
القطع	قطع أحد اليدين	اليد
الكسج	الكوسج الذي لا شعر على عارضيه	العارضان
اللَّقوة	داء في الوجه يعوجُّ منه الشدق	الوجه
المعَر	سقوط الشعر كله	الرأس
النزَع	انحسار الشعر عن جانبي الجبهة	الرأس

بقليل من التأمل في الجدول نلحظ أن العلة أنواع متنوعة من حيث العضو المصاب، كما أن من العيوب الجسدية والخِلقية ما لا يرتقي إلى درجة العلة، كاليمن والعسر وغيرهما. وتتباين العلل في الجدول أيضا من حيث حدتها وأثرها الصحي والنفسي في صاحبها. كما تختلف بروزا وخفوتا؛ فمن العاهات ما يكون خفيا، لا يدركه إلا صاحبه ومَن يحيط به كالبخَر، ومنها ما يكون معلنا بارزا للعيان كالحدَب. وقد يصاب المرء بأكثر من عاهة، كما نجد عند ابن قتيبة الذي ميز بين فئتين من ذوي العاهات: فئة مصابة بعاهة واحدة، وفئة مصابة بأكثر من عاهة. وهكذا سرد أسماء الفئة الأولى، وما يعضد أخبارها من شواهد ودلائل؛ من قبيل أبي الأسود الدؤلي، والأحنف بن قيس، ومسروق بن الأجدع، والأقرع بن حابس، وعطاء بن أبي رباح. ثم

فتح لائحة للمصابين بأكثر من عاهة، مثل أنس بن مالك، وجذيمة الأبرش، وبلعاء بن قيس[1].

ومن مظاهر تباين هذه الضروب من العلل كذلك، اختلافها على مستوى المساحة النصية التي تشغلها. فقد خصص الجاحظ على سبيل التمثيل لعاهة (البرص) ما يقارب اثنتين وأربعين ومائة صفحة، بينما لم يفرد لعاهة (الحدَب) إلا صفحة واحدة. ولعل ذلك راجع إلى طبيعة المادة المعرفية التي اجتمعت له أثناء تأليفه للكتاب. أما ترتيب العلل فلم يخضع لمنطق معين في تقديرنا؛ فقد بدأها الجاحظ في متن الكتاب بالبرص فالعرج، ثم الوقص والحدب والدرن، على خلاف ما جاء في مقدمته من تعقيب البرص والعرج باليمن والعسر والضبط.

ولئن كانت حركة التأليف في موضوع العلل وأصحابها عند جل القدامى لا تعدو أن تكون أبوابا ومباحث جانبية، فإن منهم من استهدف الموضوع بالتأليف وأفرد له مصنفا أو أكثر من مصنفاته، على غرار ما صنعه الجاحظ والصفدي. وعلى هذا النحو جاء كتاب الجاحظ في البرصان والعرجان والعميان وغيرهم خاضعا لطريقة منهجية دقيقة في تأليفه، وتفصيل أبوابه، وتقسيم أجزائه؛ إذ أفرد صاحبه لكل ضرب من ضروب العلة بابا، ساق فيه ما يرتبط بالفئة الاجتماعية المصابة بها، ذاكرا ما يخصها من أسماء وصفات وأشعار وأحداث ووقائع، مستندا في ذلك كله إلى ما تُمده به الأشعار والأخبار من مادة معرفية. وصِيغ عنوان الكتاب من أربع صفات مشتقة من أربع علل، وهي: البُرصان والعُرجان والعُميان والحُولان. لكن هل الكتاب يتحدث فقط عن ذوي العلل، الذين يشتركون في هذه الصفات؟ إن عدنا إلى فهارس الكتاب، نجد

[1] - (كتاب المعارف)، ص 570-580. ينظر كذلك باب (تسمية من اجتمعت فيه عاهات) في كتاب (تلقيح فهوم أهل الأثر) لابن الجوزي، ص327-328.

عللا أخرى كثيرة لم تذكر في العنوان. وإذا كان العنوان عتبة ملخصة لفحوى النص – أيا كان شكله– وبؤرة لحمولته الدلالية، فما المعايير التي استند إليها المؤلف في اختياره لتلك العاهات بالذات، حتى يشتق منها عنوان كتابه؟ هل المسألة ترتبط بالبعد الكمّي، أي الحضور القوي للعاهات الأربع قياسا على باقي العاهات؟

يجيب محقق الكتاب عبد السلام محمد هارون عن التساؤل بالنفي، إذ لا نجد في الكتاب «قولا شافيا في جانب العميان والحولان، طبق ما هو مثبت في عنوانه المدوَّن على وجهه. على حين نجد إضافات لم ينصَّ عليها في العنوان كالحُدب والوُقص والأدْران والمفاليج والأشجِّين، ومَن أصابته اللقوة واعوجاج الوجه وذوي الأعضاء المرغوب عنها لشبهها بالحيوان، ومَن سُقي بطنه ومَن قتلته الصواعق والرياح..»[1].

ولم يتوقف الجاحظ أثناء حديثه عن علة العرج عند حد ذكر أسماء الذين تحدّوا إعاقتهم، وصنعوا لأنفسهم مجدا وشرفا، وتبوَّأوا مكانة سنيّة في مجتمعهم، بل تحدث كذلك عن صُنوف العرَج في ما سماه (وصف ضروب الاعوجاج والجنُوء والإكباب)[2]. كما استطرد إلى الحديث عن العاهة عند الحيوانات، والأمور الملتوية، والأشياء المخلوقة المعوجَّة. بالإضافة إلى ميْزه بين العرَج الطارئ والعرج الأصل في (باب العوج الحادث الذي يزول بزوال العلة)[3]. وذكر من أنواع العرج كذلك ما عمّ أهل البيت، وما نجم عن قطع في الحرب.

وبموازاة مع العرجان، أورد نماذج بشرية تمثل للضعف والعجز في معرض حديثه عن أنماط المشي (مشي العجوز/ مشي الأرملة/ مشي المجنون). وصنف أصحاب العاهات تصنيفات شتى وفق معايير دقيقة؛ من قبيل طبيعة العاهة (البرصان/ العرجان/

(1) - كتاب البرصان...، ص 14.
(2) - ص 241.
(3) - ص 280.

العميان/..)، والقبائل التي ينتمون إليها (ثقيف/ بني قشير بن كعب/ بني الأعرج/...)، والجنس (الآباء والأمهات)، والمعرفة والنكرة (المجاهيل)، والميدان الذي برعوا فيه. وعلى هذا النحو، جاء كتاب الجاحظ متسما بفرادته وشموله ودقته، لا يعدله في ذلك سوى مصنفيْ صلاح الدين الصفدي اللذين اقتصر فيهما على ظاهرة العمى والعميان، راصدا أحوالهم الاجتماعية والنفسية والإنسانية، والحقائق العلمية والأحكام الشرعية المؤطِّرة لها. أما ما ساقه ابن قتيبة والقاشي وابن الجوزي والأبشيهي فلا يجاوز صفحات، أفردوها لذكر بعض الآفات والعلل، والتعريف بأصحابها، وبيان مناسبات الإصابة بها وبعض وسائل تطبيبها ومداواتها.

2.1-السبب:

كثيرة هي الأسباب التي تعود إليها العلل الواردة في الجدول السابق. ويمكن أن نميز فيها بين استعمال بعض الوسائل والأدوات المعتمدة في الحياة اليومية، وطبيعة الغذاء، وظروف السكن، والعوامل الوِراثية، والحروب، والشيخوخة، والإصابة بالنار وبالأذى من بعض الحيوانات. تسببُ الموسَى في إصابة حشَفة المختون بالبرص، كما ينجم البرص عن شرب اللبن؛ حيث إن «الإنسان يعتريه البرش من شرب اللبن وأكل التَّمر. وقد هجا بذلك الفرزدق بني سعد لقربهم من التمر، فقال:

ولستَ بسعْدِيٍّ على فيه حِبْرَةٌ ولسْتُ بعَبْدِيٍّ حقيبتُهُ التَّمْرُ
ولكنَّنِي منْ دارِ وهْبِ بنِ مالكٍ وليْسَ بحمْدِ اللهِ والدِي الفِزْرُ

والفزر هو سعد نفسه»[1].

وتكون ظروف السجن وأحواله وآثاره الجسدية والنفسية على السجين عاملا من عوامل إعاقته، مثلما حصل لبني عبد الأعلى الشيباني البارِعين في الشعر والخطابة،

[1] - كتاب البرصان..، ص 83-84.

وهم عبد الله وعبد الصمد وأخوهما. فقد «كان هشام بن عبد الملك بعث بهم إلى يوسف بن عمر، وكانوا أصحاب الوليد بن يزيد وخاصته. والوليد يومئذ القائم بعد هشام، فدفعهم يوسف بن عمر إلى محمد بن نُباتة، فطيَّن عليهم إلا بمقدار ما يُدخَل عليهم من الطعام، فأطعمهم ولم يَسْقهم. فلما أجهدهم العطش صاحوا: ياسميَّ رسول الله، إنا مسلمون. ألا ترى أن اسم أبينا (عبد الأعلى)، وأسماؤنا عبد الله وعبد الصمد؟ فلم يُمْسوا حتى اسودوا ثم اسودوا، ثم برِصوا ثم سُلخوا. وإنما قالوا ذلك؛ لأن هشامًا بعث بهم إلى يوسف على أنهم زنادقة، وأراد بذلك التشنيع على الوليد»[1].

ومن العلل ما يكون وِراثيا ينتقل من شخص إلى آخر، إذ إن أم ولد سليمان بن عبيد التي تكنى أم عيسى- «كانت برصاء، لم تلد قطُّ إلا أبرص أو برصاء، إلا أنهم في بعضهم أخفى، وفي بعضهم أظهر»[2]. وقد نفى الجاحظ عن عبد الله بن عمر أن يكون أرْقش، لكنه بالمقابل «كان شديد الأدمة، أتاه ذلك من قبَل أخواله آل مظعون»[3]. ومن هؤلاء أيضا علي بن زيد الذي «ولد وهو أعمى»[4]. كما أصيب بالعمى عبد الله بن عباس، وأبوه العباس بن عبد المطلب، وجده عبد المطلب بن هاشم. لذلك قال معاوية لابن عباس: «أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، فقال ابن عباس: وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم»[5].

ثم إن الحرب أسهمت إسهاما قويا في إعاقة الكثير من الشخصيات التاريخية المذكورة في كتب العلل والعاهات وأصحابها، تبعا لطبيعة ظروف المرحلة التاريخية ونسقها الاجتماعي والثقافي. ويندرج في هذا النطاق باب (تسمية مَن ذهبت عينه في

(1) - نفسه، ص 130.
(2) - نفسه، ص 129.
(3) - نفسه، ص 118-119.
(4) - المعارف، ص 588.
(5) - نفسه، ص 589.

الحرب) الذي عقده القاشي وابن الجوزي لعلاقة العلة بالحرب[1]. كما ذكر الجاحظ أن مناسبة عرج علقمة بن قيس كانت هي مشاركته في حرب صفّين[2]. وعمّار بن ياسر «قطعت يده يوم اليمامة»[3]، وأبو سفيان بن حرب «ذهبت عينه يوم الطائف»، والأشعث بن قيس «ذهبت عينه يوم اليرموك» كذلك. والأمر نفسه يسري على كل من قيس بن مكشُوح، والأشتر النَّخعي، وعمرو بن معد يكرب، وقبيصة بن ذؤَيب، ومالك بن مسمع، وغيرهم. ومن الدلائل المجسدة للعاهة الناجمة عن النزاع والعراك، أن المختار بن أبي عبيد «ضرب عبيد الله بن زياد وجهه بالسُّيوط، فذهبت عينه»[4].

كما تنجم العلة أيضا عن الهرم والشيخوخة، مثلما هو حال سعيد بن أبي وقاص، الذي «ذهب بصره في آخر عمره»[5]. وفضلا عن الجاه والشرف الذي حصل لفئة عريضة من هؤلاء المصابين، فإن عاهات الكثير منهم لم تكن متأصّلة فيهم، وإنما اعترتهم بعد تقدمهم في السن. فقد «فلج من أطباء محمد بن عبد الملك ثلاثةٌ، كلهم قد كان بلغ في السن، وفي سلطان اليسر ما قد يؤمنهم من هذه العلة، وما كانوا إلا جلودا على عظم»[6]. ويذكر صلاح الدين الصفدي أن العمى كان متأصلا شائعا في بعض القبائل العربية، ممثلا لذلك بقبيلة بني عوف حتى «إذا أسنّ الرجل منهم عمي، وقلّ من يُفلت عن ذلك»[7].

(1) - رأس مال النديم، ص42، تلقيح فهوم أهل الأثر، ص325.
(2) - المعارف، ص 583.
(3) - المعارف، ص 584.
(4) - نفسه، ص 586.
(5) - نفسه، ص 588.
(6) - كتاب البرصان، ص 449.
(7) - نَكْت الهميان في نكت العميان، ص 69.

ويترتب على استعمال النار استعمالا خاصًا إصابةُ البعض بعلة من العلل، على غرار ما جرى للبرشاء أم قيس بن ثعلبة. «ذكر سُحيم بن حفص أن الجذماء كانت ضرة البرشاء، وأنها رمت البرشاء بجمر كان في يدها، فبرِش جلدها من النار»[1]. وتعود الإصابة كذلك إلى تعرض صاحبها لبعض الحيوانات المفترسة، كالسباع والكلاب وغيرها، نستحضر هنا إشارة الجاحظ إلى المرقش الأكبر قد «أكل السبع أنفه»[2].

3.1-الوسيلة:

لا ينفصل الحديث عن العلل والعاهات والآفات في الثقافة العربية القديمة عن ذكر وسائل مداواتها وطرق علاجها، ويكفينا شاهدا على ذلك تأمل أقسام بعض المصنفات التراثية في علم الطب والصيدلية والنبات؛ من قبيل كتاب (الحاوي في الطب) لأبي بكر الرازي (ت311)، و(التصريف لمن عجز عن التأليف) لأبي القاسم الزهراوي (ت400هـ)، و(القانون في الطب) لابن سينا (ت428هـ)، و(رسالة في علتي البرص والبهق) لابن زهر (ت557هـ)، فضلا عن أطروحات الكندي (ت256هـ)، وابن باجة (ت529هـ)، وابن البيطار (ت646هـ)، وابن رشد (ت595هـ)، وغيرهم، وتصفح ما صاغوه فيها من ألواح وقواعد طبية في بيان الأدوية المفردة والمركبة المناسبة لعلاج العلل والأمراض المختلفة. ومن هذا المنظور ذاته، عقد الأبشيهي لهذه الوسائل مبحثا عقب رصده لأنماط من العلل أسماه: (في التداوي من الأمراض والطب)[3]، تحدث فيه عن وصفات علاجية متنوعة لمداواة بعض الأمراض، وإن كان حديثه كان حديثا عاما ركز فيه على أهمية التداوي وضرورة التطبيب في الحياة البشرية، معززا ذلك باستدعاء نماذج وتجارب إنسانية مستوحاة من التاريخ.

(1) - كتاب البرصان، ص 120-121.
(2) - المعارف، ص 584.
(3) - ينظر المستطرف، ص18-21.

ثم إن الجاحظ لما شخص ضروبا من العلل وأوصافها وأحوالها، عمد إلى رصد ما ينفع معها من علاج. فقد ذكر من وسائل التطبيب والمداواة من النباتات والوصفات العلاجية ما يدل دلالة قاطعة على سعة معارفه واطلاعه البارع على العلل في جوانبها المختلفة، من ذلك الزعفران والورس والحص والذهب والعسل وما إلى ذلك. يروي خبرا متصلا بمداواة أيمن بن خريم برصه بالورس. إذ «لحق ببشر بن مروان (...)، فأعطاه مائة ألف. وكان أيمن يخضب يده ليغطي البياض بالورس. وكان لا يؤاكله، فاشتهى بشر لبنا فأُوتي بثريدة لبن، فقال لحاجبه: انظر من يأكل معي. فخرج فوجد أيمن بن خُريم، فلما رآه بشر ساءه دخوله، فقال: يا أيمن اشتهيت البارحة لبنا، قم إني نويت الصوم، فلا أرى أحدا أحق به منك. فأكل أيمن فلم يلبث أن اصفر اللبن، فقال نصيب:

تُعالجُ بالحُصّ البيَاضَ فلمْ تجدْ دواءً وداوَاك عيسَى بْن مَرْيمَا»[1]

وروي عن أبي الحسن وغيره عن ابن جُعدبة قوله: «كان بأبي جهل برص بأليته وغير ذلك، فكان يردعه بالزعفران»[2]. ثم إنهم خضَّبوا البرص بالحناء، كما استعانوا بالزعفران لطلي مكانه وإخفاء معالمه. أفرد ابن قتيبة بابا لذوي العلل أسماه (أهل العاهات)، فذكر منهم أبان بن عثمان بن عفان، الذي «كان أصم شديد الصمم، وكان أبرص، يخضب مواضع البرص من يده، ولا يخضبه في وجهه، وكان مفلوجا»[3].

واستعمل العرب القدماء كذلك الورق والذهب والخشب لتعويض بعض الأعضاء المبتورة، كما هو الشأن بالنسبة لعبد الرحمن بن طرفة، الذي أصيب أنفه يوم الكلاب، «فاتخذ أنفًا من ورق فأنتنَ عليه، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفًا

(1)-كتاب البرصان، ص 168-169.
(2) - نفسه، ص 159-160.
(3) - المعارف، ص578.

من ذهب»[1]. وكان «سيار بن رافع قطعت يده في بعض قلاع فارس، وهو الذي يقول في أوفى موألة حين عرِج:

رأيتُ أوفى بُعيدَ الشَّيب من كثَبٍ في الدارِ يمْشي علَى رجْلٍ منَ الخَشبِ
جعلت للعُرْج مجدًا لم يكنْ لهمْ وللقِصـــارِ مقَـــالا آخرَ الحِقبِ
وكان أوفى قصيرا»[2].

واستخدموا السِّدر في تنشيط الشعر وتخصيبه، ووقاية الرأس من الصلع والقرع؛ حيث إن «الغالية تُورِث الشيب، وغسل الرأس بالسدر يحث الشعر»[3]. وكانت النار من الوسائل التي كانت تستعمل في مداواة كثير من الأمراض والأسقام مثل البرص. «تزعم العرب وناس من جهَّال أصحاب الأخبار، أن ناسًا من العرب ومن قريش خاصة، أصابهم الماء الأصفر والبرص جميعًا، وأن بعضهم اكتوى فبرأ منهما جميعًا، وبعضهم وجأ بطنه بحديدة فبرأ منهما جميعًا، وبعضهم اكتوى فمات»[4].

4.1-الأثَر:

لم يفت القدماء -وهم يستعرضون ملف ذوي العلل، ويلقون الضوء عليه من مناحيه المختلفة- أن يكشفوا عن انعكاسات بعض العلل وأثَرها المادي والمعنوي في صاحبها؛ من ذلك اقتران صاحب الإعاقة بإعاقته، وتلقيبه بها. «ومن البُرصان الأشراف من الملوك: جذيمة بن مالك، صاحب الزبَّاء وقصير، وكان يقال له جذيمة الأبرص. فلما ملك، قالوا على وجه الكناية (جذيمة الأبرش). فلما عظم شأنه، قالوا: (جذيمة

(1) - نفسه، ص 482.
(2) - نفسه، ص 381.
(3) - نفسه، ص 513.
(4) -كتاب البرصان..، ص85-86.

الوضّاح). ولم يقولوا: جذيمة الأوضح؛ لأنهم يضعون هذا الاسم في موضع الكناية عن الأبرص، وذلك كثير»[1].

وقريب من هذا تلقيب عمرو بن عمرو بن عُدُس وأبنائه البرصان ب(أفواه الكلاب)، «وقد زعموا أنهم إنما قيل لهم أفواه الكلاب لمكان البَخَر، وقد كذبوا، إنما يقال ذلك لأصحاب الخُرطوم والخراطيم. وكل سبُع يكون طيب الفم كالكلب وما أشبهه، فإنه لا يوصف بذلك، وإنما يعتري ذلك مثل الأسد والصقر، وكل شيء جاف الفم...»[2]. ولا يخفى في حقيقة الأمر الأثر العميق للتلقيب على صاحبه، بوصفه اسما ما يفتأ يذكّره بعاهته، أو بالحادث المؤلم الذي أصيب فيه بالعلة. ومن القرائن والمرجحات التي تشي بذلك، تعديل ألقاب بعض الشخصيات، فيصير الأبرص أبرش، ولكن هذه المسألة مقتصرة على ما يبدو على الطبقة الراقية ذات المكانة والسيادة.

ولئن كان الأثر السابق لا يقربنا كثيرا من الحالة النفسية لصاحب العلة، لأنه سلوك يمارس عليه، ولا حول له فيه ولا قوة، فإن من الانعكاسات ما هو مادي، ينمّ على توتر صاحب العاهة وانفعاله وغضبه، فيترجم شعوره الباطني المعنوي بسلوك ظاهري مادي له تبعاته. ويتمثل ذلك في تطبيق شِرعة الثأر (أو الانتقام) على من كان وراء علته، على نحو ما نجده عند حُكَيم بن جبلة الذي قطعت رجله، فثأر لنفسه بها من باتِرها. وهي صورة فظيعة في حقيقة الأمر، لم يفت الجاحظ أن علق عليها بقوله: «فهذا مما ينكره أصحاب الحرب».

ومن هذه الزاوية نتساءل: هل مدار الإنكار عند الجاحظ على مدى حصول الحدث ووقوعه، أو على فظاعته وقبحه؟ ونحن نميل إلى الاختيار الثاني، وحجتنا على

---

(1) - كتاب البرصان..، ص 116-117.
(2) - نفسه، ص 164-165.

ذلك أنه بعد هذا الخبر، أورد خبرا آخر أكثر من سابقه دهَشا وعجبا، لما قال: «وأعجب منه حديث أبي عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء... »[1]. وهي طريقة منهجية للربط بين الأخبار في تناسلها وتعاقبها، تذكرنا بطريقة شهرزاد في حكايات ألف ليلة وليلة.

وقد لا يثأر صاحب العلة نفسه لعلته، بل يثأر له غيره، مثلما ثأر السُليك الخُويلدي لزياد بن عطارد بن زياد لما قطعت يده، متوسلا في ذلك بوسيلتين اثنتين شعره وسيفه. وتفصيل ذلك أن «السُليك الخويلدي ينشد يده، وهو يقاتل ويقول:

كيْفَ تَرَاني والفَتَى عُطَـاردَا أذُودُ مِـن حَنيفةَ المَوَارِدَا

أذُودُ منْهُـمْ سَرَعـانًا وارِدَا أنشُـدُ كفًّا ذهبتْ وسَاعدَا

أَنشُدهَا ولا أُرَاني واجِدَا»[2]

وهكذا لم يفت بعض القدماء كالجاحظ من أن يفصحوا عن تفاصيل الإصابة بالعة، وردود أفعال المصابين بها في مواقف حرجة، تتصل بلحظة نزول الحوادث، والتماثل للشفاء، واستساغة ضروب من الأدوية والعلاج والنفور من البعض الآخر، وعيادة المريض وتعزيته والدعاء له، مقتنصين ما يدور في تلك المواقف والمقامات من صنوف الكلام النادر. ولنا أن نتأمل مليّا قوله: «ولو ذكرنا –حفظك الله– أن ممن سُقي بطنه (..)، ثم لم نذكر حسن عزائهم ونوادر كلامهم عند نزول تلك الحوادث (..)، فإن ذلك عظة لمن سمعه، وأدب لمن وعاه، وصلاح لمن استعمله»[3].

2–المستوى التصويري:

1.2– خطاب ذوي العلل والنزعة الإنسانية عند الجاحظ والصفدي:

(1) – نفسه، ص 376.
(2) – نفسه، ص 384.
(3) – كتاب البرصان..، ص35-36.

سنتساءل –كما تساءل طه الحاجري محقق كتاب (البخلاء): «ما الذي لفت الجاحظ إلى موضوع البخلاء يصطنعه كتابا؟ وهل كان مبتدعا فيه، أم سبقه السابقون من كتَّاب العربية إليه؟»[1]– عن درجة الإبداع عنده في (كتاب البرصان والعرجان...)، وعن مدى ريادته في تناول موضوعه وغايته منه. من المعلوم أن الجاحظ أصيب في آخر حياته بالفالَج، وذلك في أواخر عهد ابن الزيات قبل مقتله سنة ثلاث وعشرين ومائتين للهجرة[2]، زدْ على ذلك أنه ألف (البُخلاء) لما آنس في نفسه من ابتلاء بهذه الصفة، كما يقول أحمد العوامري وعلي الجارم في مقدمة تحقيقهما له[3].

وعليه، فإن دربته وبراعته ومعرفته الخفيّة بتفاصيل الموضوعيْن ودقائقهما، قد تعود في جزء منها إلى تجربته الشخصية مع البخل والفالج وجحوظ العينين. غير أننا مع ذلك، نرى أن كاتبا كبيرا كالجاحظ، لا يعوزه تجريب الكتابة في الموضوعات والمعاني المختلفة، ما دام قد تمرّس بأساليب الكتابة، وعُرف بدقة ملاحظاته وخبرته بواقعه الاجتماعي، وقدرته على إضفاء بصمته الشخصية وطابعه الفني الأدبي على كتاباته.

(1) - دار المعارف مصر، ط7، د.ت، ص 28.
(2) - تنظر مقدمة كتاب (الحيوان)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1965م، 1/25-26.
(3) - دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2001 م، 1/15-16.

ولا أدل على ذلك من مصنفاته ورسائله، التي تناول فيها القِيان[1]، والحيوان[2]، والعلل[3]، والبخل[4]، وغيرها.

لقد كانت غاية مَن طلب من الجاحظ وضعَ كتاب له في الموضوع، أن يجمع له ما حام حوله من صنوف القول وأشكال التعبير، أو ما يمكن تسميته «أدب العلل»، على غرار أدب السجون والمنافي والمهجر والغربة. ولتأكيد هذه الحقيقة، يكفي أن ننبه إلى التردد القوي لكلمة (القول)، وما يسبح في فلكها من ألفاظ وكلمات؛ مثل (الذكر) و(الوصف) و(المدح) و(الذم) وغيرها، مثلما ينجلي في كلام له توقفنا عنده سابقا، (وسألتني أن أبدأ بذكر البرصان وأثني بذكر العرجان، ثم أذكر ما قالوا في الأيمن والأعسر (...)، وكيف مدحوا الرؤوس بالعظم، وذمّوها بالصغر).

هذا وقد توسل –موازاةً مع سجل شعري وفير– بمادة سردية خصيبة، حملت في طياتها هموم هذه الفئة الاجتماعية، وصاغت تجاربها في الحياة في علاقتها بالأحياء. وهي مادة مكنتنا إلى حد كبير من إعادة بناء الشخصية ذات الإعاقة، والوقوف عند خصائصها الجسدية والنفسية والصحية والاجتماعية والأدبية من منظور إنساني أخلاقي. ترى فدوى مالطي أن الجاحظ كان معجبا بغير الأسوياء الذين لا يختلفون كثيرا عن الأسوياء، مفتخرا بسلوكهم وتصرفهم وذكائهم وأدبهم، ساعيا إلى إدماجهم داخل المجتمع

(1) ـ تنظر في هذا الباب (رسالة القِيَان)، التي سجل فيها دقائق حياة هذه الفئة الاجتماعية، وصور جوانب مختلفة من حياتها في ظل المجتمع الإسلامي، ضمن كتابه (الرسائل)، بتحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط1، 1964م، 1/139-181.

(2) ـ استثمر طاقته الأدبية والبيانية المتقدة في تصوير الحيوان من مناحيه المختلفة، مازجا في ذلك بين الأسلوبين العلمي والأدبي، الأمر الذي منحه ندرته وفرادته وتميزه.

(3) ـ كما في (كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان).

(4) ـ فقد تناول قيمة البخل تناولا أدبيا طريفا في كتاب (البخلاء)، ساق فيه مادة سردية ثرّة، تطفح في مظهرها بأساليب السخرية والتندُّر والفكاهة والهزل، وتلامس في مخبرها أبعادا شعوبية وسياسية واجتماعية عميقة (الصراع السياسي بين الأمويين والعباسيين).

الأدبي على الأقل بوصفهم "مهمَّشين". وبذلك يكون المجتمع الذي يصدر عنه في جمع مادته المعرفية والسردية التي صاغها في الكتاب «منفتحا يرحب بالتنوع، بينما لا يزال المجتمع الغربي إلى اليوم يكافح من أجل تقبل المعاقين جسديا وعقليا؛ إذ يبقى المعاقون في المجتمع الغربي منفصلين كفئة مختلفة عن الفئة العادية»[1].

لقد كان السرد المطية الأولى للجاحظ في رمّ تصدعات الشخصية، ورتْق فتُوقها، واستجماع شظاياها، ولمْلمة أطرافها التي أبى المجتمع إلا أن تكون متشظِّية، وذلك في معرض انتقاده للهيثم بن عدي الذي اكتفى بسوق نماذج لأهل العلل، دون أن يكلف نفسه عناء تتبع الآثار الأدبية المرتبطة بعاهاتهم: «ولكن ما معناه في أن أبا فلان كان أعمى، إن لم يكن إنما اجتلب ذكر العرج والعمى، ليحصل ذلك سببا إلى قَصص في أولئك العُرجان، وإلى فوائد أخبار في أولئك العُميان..»[2].

ولعله حكم لا يسري على الهيثم فحسب، بل ينطبق كذلك على ابن قتيبة، والقاشي، وابن الجوزي، كما أسلفنا الذكر. أما صلاح الدين الصفدي، فقد انتهج نهج الجاحظ ذاته، لما أثَّث كتابيه السابقين بزاد خصيب من الأحكام الشرعية والملح والنوادر والطرائف والأخبار والأشعار، خاصة ما نقرؤه في بعض مقدماتهما؛ كالمقدمة التاسعة (في نوادر العميان)[3]، والعاشرة (في شعر العميان وما قيل فيهم من الغزل وغيره)[4]، وخاتمة المقدمات (في ذكاء العميان وطرف أخبار تدل على ذكائهم)[5]، و(المقدمات الرابعة والخامسة والسادسة من كتاب (الشعور بالعُور)[6]. ومن يستقرئ ما ورد فيها من أحكام

(1) - من التراث إلى ما بعد الحداثة، المركز القومي للترجمة القاهرة، ط2، 2009م، ص135.
(2) - كتاب البرصان..، ص 35.
(3) - نكت الهميان..، ص66-70.
(4) – نفسه، ص71-82.
(5) - نفسه، ص83-86.
(6) - ص85-108.

ومواقف ومحكيات، يخلص إلى مقصديَّة صاحبها الرامية إلى التعريف الشمولي بالعميان والتأصيل لأدبهم، والاعتراف بحظهم الأوفر في العلم والذكاء والأدب، والانتصار لهمومهم وانشغالاتهم الإنسانية. ومن هذا المنظور، نستحضر ما امتدحه به فضل الله العمري عند قوله:

معجزٌ لم يجئ كتابٌ بما جـاء به من لطَـائف الأخبـارِ
وفنُون الآداب والعلم والفضـل وحسْن المنثُور والأشعارِ[1]

ثم إن التأمل في ما يشعّ بين ثنايا بعض المرويات والمحكيات الدائرة على أهل العلل؛ من حصافة الرأي، وسرعة البديهة، وسعة الخيال، وخفة الظل، يتأكد من نزوع الجاحظ والصفدي منزعا إصلاحيا في إرساء معالم هذا الضرب من الأدب، ونصرة أصحابه، كما نقرأ في الأمثلة الآتية:

- "قال بعضهم: نزلت في بعض القرى وخرجت في الليل لحاجة، فإذا أنا بأعمى على عاتقه جرة ومعه سراج. فقلت له: يا هذا؟ أنت والليل والنهار عندك سواء. فما معنى السراج؟ فقال: يا فضولي، حملته معي لأعمى البصيرة مثلك، يستضيء به، فلا يعثر بي فأقع أنا وتنكسر الجرة"[2].
- "قال بعضهم لبشار بن برد: ما أذهب الله كريمتي مؤمن إلا عوضه الله خيرا منهما. فبم عوضك؟ قال: بعدم رؤية الثقلاء مثلك؟"[3].
- "يقال إن رجلا أعمى تزوج امرأة قبيحة، فقالت له: رزقت أحسن الناس وأنت لا تدري. فقال لها: يا بظراء، أين كان البصراء عنك قبلي؟"[4].

---

(1) - نفسه، ص83-86.
(2) – نفسه، ص67.
(3) – الشعور بالعُور، ص66.
(4) – نفسه، ص67.

2.2- خطاب ذوي العلل من منظور المجتمع والسلطة والثقافة:

سعى التأليف العربي في خطاب ذوي الإعاقة إلى تبيان نظرة العرب مجتمعا وسلطة وثقافة إلى العلة ومن ابتلي بها، ورسم صورة لها. وقد توسل الجاحظ والصفدي والأبشيهي على وجه الخصوص بما توافر لهم من مادة شعرية وسردية، لرسم ملامح تلك الصورة، فاستطاعوا بالمهْيَع الذي سلكوه في تأليف مواد تصانيفهم، والرؤى الفكرية والمنهجية التي توجه خطواتهم في درب التأليف، أن يجْلوا لنا صورة صَقيلة شفيفة لهؤلاء ونظرة المجتمع إليهم. ولم يكتفوا بتصوير الحدث في حد ذاته، بل فحصوا ما قيل فيه من أنماط الخطاب وصنُوف القول بنسب ومقادير متفاوتة.

ويمكن أن نتتبع بعض الشواهد الشعرية للاقتراب من نظرة المجتمع إلى هذه الفئة. يقول شاعر في يزيد بن مَزْيَد بن زائدة هاجيا إياه:

مَا أَحْسَنَ الضَّربةَ في وَجْهِهِ إنْ لمْ تكُنْ رمحَةَ برْذُونِ[1]

تلخص لنا الإشارة النصية الآتية موقف المجتمع من المصاب بالإعاقة، ومدارها الحكم بن صخر المصاب بالبرص. إذ تزعم ثقيف أنه «بان بشيء لم يكن لأحد قبله، قالوا: لم يبغض أحدا قط، ولا أبغضه أحدٌ قط»[2]. وللمجتمع العربي نظرة حسنة كذلك إلى الصلَع، حيث يعتبره علامة على الكرم. يروي الحسين بن عُمارة عن نُعَيم بن أبي هند، أنه «دخل إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عُبيد الله على عمر بن عبد العزيز، وكان إبراهيم ذا جُمَّة حسنة، وكان عمر ذاهب الشعر، وصلِع قبل الثلاثين، فقال له عمر: أما إن قريشا تزعم أن كرامها صلعانها»[3].

---

(1) - كتاب البرصان..، ص 455.
(2) - نفسه، ص 147.
(3) - نفسه، ص 514.

ويُستشف من الخبر الموالي، الذي جمع بين شخصيتين تشتركان في عاهة العسر (محمد بن يزيد وكُردوية)، كيف كان كل منهما في عصره بطلا، ينظر إليه نظرة إعجاب وتكبير. وجاء السرد يرصد تفاصيل لقاء النّدين فيما بينهما ومنازلة أحدهما للآخر، وتساؤُلَ الجميع عن المنتصر والمنهزم من الطرفين والقوي والضعيف منهما. فقد «كان محمد بن يزيد مولى المهالبة أشد الناس في فتنة سَندان، له في كل يوم يكون فيه حرب أسير، يأخذه من صف عدوه عَنوة أخذَيْدٍ، فيضجعه ويذبحه والناس ينظرون إليه، فشد عليه كُردوية ذات يوم، وثبت له محمد بن يزيد، فاختلفا ضربتين، فضربه كُردوية ضربة خرَّ منها ميتا لم يفحص برجل، ولم يتحرك له عرق»[1].

ولذوي السلطة والرِّئاسة والزعامة من الخلفاء والأمراء والولاة مواقف متباينة من أصحاب العلل عامة، مثلما تترجمها الشواهد النصية والدلائل التاريخية التي بين أيدينا. فقد كان لبعضهم نظرة قدحية إلى البرص والمبتلين به؛ إذ «قدم على سليمان بن عبد الملك وفدٌ من المدينة وحضر طعامه، فدعاهم إليه فدنوا، فقال رجل منهم وجاءت ثُرْدة: ما هذه الرَّمْكاء يا أمير المؤمنين؟ فقال له سليمان: ما هذا الأنس قبل الخِلطة؟ ثم حسر الرجل عن ذراعه وعن يده، فإذا في ذراعه وضَح، فقال: يا أمير المؤمنين، وهذا أيضا. قال: فلما أمر لهم بجوائزهم، قال: زيدوا الرجل مائة دينار لما كلّمناه به».

ضاعف سليمان للرجل مكافأته، والسر في ذلك على ما يبدو هو الكلام الذي صدر منه في حق الرجل، الذي سأله سؤالا عاديا (ما هذه الرَّمْكاء يا أمير المؤمنين؟)، يدخل في معرض تنشيط فاعلية التواصل. فكان رد سليمان على ما يبدو قويا، سبب في انزعاج الرجل وتوتره وقلقه؛ مما يفهم من كشفه عن ذراعه الذي فيه وضح، وقوله له: (يا أمير المؤمنين، وهذا أيضا).

---

(1) -نفسه، ص 524-525.

ومهما يكن فإن صاحب العلة كانت له الجرأة والشجاعة لإظهار عيبه، وإن كان المقام مقام توتر وغضب. كما أن الخليفة بالمقابل، لم تمنعه العلة من مؤاكلة صاحبها ومخالطته. وشبيه بهذا الخبر خبر أيمن بن خُريم الأبرص؛ لما «غضب عليه (بشر بن مروان)، ومضى إلى عبد العزيز وهو على مصر، فوهب له قيمة ألف درهم. ثم جرى بينه بعد ذلك وبين بشر كلام، فقال أيمن: لا والله، ولكنك ملُول مستطرِف. فقال له بشر أنا ملول مستطرف، وأنا أؤاكلك منذ كذا وكذا»[1].

ولا نعدم إشارات مبثوثة بين ثنايا التصانيف والتآليف التراثية، تقربنا من نظرة المثقف العربي إلى هذه الفئة، وتعاطفه معها ودفاعه عنها. ذلك أن الأبشيهي –على سبيل التمثيل– يميز بين رؤيتين فكريتين: رؤية فكرية تتخذ من الشريعة الإسلامية مرجعيتها المعرفية، وتتأسس على آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال مأثورة عن الصحابة والتابعين، تنظر إلى العاهة بوصفها ابتلاء من الله، وأداة لغسل الخطايا والذنوب، ومفتاحا للثوبة. ورؤية تمثلها المواقف التاريخية لبعض الناس من ذوي العلل، فتقوم على أسس نفسية وسيكولوجية ينم عنها سلوكهم القائم على النفور والكراهية والاشمئزاز وما إلى ذلك. ومن ذلك تطليق عبد الملك بن مروان الأبخر لزوجته لما رمى إليها بتفاحة عض عليها، فدعت بسكين لتميط عنها الأذى. وتعيير سليمان بن عبد الملك لأبي الأسود الدؤلي بالبخر وستر أنفه بكمه، وكان رد فعل الدؤلي ألا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البخر.

وما يفتأ الجاحظ يفخر بذوي العلة، ويقلل من شأن عللهم في نصوص كثيرة. لعل من أجلِّها قوله: «وما ضرَّ –أكرمَك الله– هرثمة بن أعْيَنَ، ونصرَ بن شبَث، وغيرهما

(1) -كتاب البرصان..، ص 138.

من الرؤساء المحاربين المُقْرَبين[1] الذي كان يمنعهم من المشي؛ إذْ كانوا على ظهور الخيل أمثال العِقبان»[2]. ونجده كذلك يرصد رصدا دقيقا الفئة التي فخرت بعاهتها، وذكر ما قالته شعرا ونثرا. «وممن فخر بالبرص من الرؤساء والشعراء بلعاء بن قيس بن يعمر...»، و«من البرصان ممن فخر بالبرص سويد بن أبي كاهل»[3]، و«ممن فخر بالبرص ثم من بني رزام المحجل، وكان بساقيه وضح، واسمه معاوية بن حزن بن موألة..»، و«أما من فخر بالعمى، فمنهم بشار بن برد»[4].

واضح من هذه الإشارات النصية، البعد الإصلاحي الاجتماعي الذي تترجمه ألفاظ؛ من قبيل "العظة"، و"الأدب"، و"الصلاح"، التي تتردد ترددا لافتا عند الجاحظ والصفدي والأبشيهي على وجه التحديد. وعلى هذا الأساس، فإن عيوب تلك الفئة وأسرارها من منظور النسق الثقافي العربي القديم أمانة في أعناق مَن يحيط بها؛ من قبل الأطباء ومغتسلي الموتى، فضلا عن الأدباء والمثقفين والمفكرين. ذلك أن «أول الشروط التي وضعت في أعناق الأطباء، ستر ما يطلعون عليه في أبدان المرضى، وكذلك حكم من غسل الموتى»[5].

ومن هذا المنظور، فإن المتمعِّن في ما تضمنه بعض التصانيف التراثية من عناوين وأخبار وقضايا ومصطلحات تدور في فلك الإعاقة ومن ابتلي بها، يلحظ أنه يكتسي في جانب منه طابعا جديا؛ قائما على أساس رصد ملمح دقيق من ملامح الواقع وتشخيصه، وتبيان تداعياته وآثاره وانعكاساته، وتوضيح السبل الكفيلة لتجاوزه أو التخفيف من حدته على الأقل. وهذا ما يعضدُه قول الجاحظ: «ولولا أن الذي أكتبه لك

(1) ـ المقرَب من الخيل: الذي يقرَّب معلفه ومربطه لكرامته. ابن منظور: لسان العرب/ قرب.
(2) ـ كتاب البرصان..، ص 47.
(3) ـ نفسه، ص 63.
(4) ـ نفسه، ص 49.
(5) ـ كتاب البرصان..، ص 36.

مجانب لطرق الهيثم، وخارج مما يشتهيه الريّض المتكلِّف المَلول، وأنه كتاب جد غير هزل، لما كتبته لك»[1].

وعليه لا نشاطر الرأي حسن بن فهد الهويمل، تصوره التعميمي الذي يجعل الغاية الناظمة لجهود القدماء المنشغلين بموضوع العلل وأصحابها، إنما هي التندر والسخرية والهزل[2]. والحال أن هذه المرجعية الثقافية التي يصدر عنها الهيثم بن عدي وأبو حيان التوحيدي (ت414هـ) وغيرهما، لا تنفصل عن مرجعية إصلاحية ذات طابع إنساني كشفنا عن بعض ملامحها آنفا. لذا كان هدف الجاحظ من وراء تأليف كتابه في الموضوع –حسب محققه عبد السلام محمد هارون– «أن يجلو صورة ناصعة مشرقة لذوي العاهات من الذين لم تكن عاهتهم لتحول بينهم وبين تسنم الذرى»[3].

بيد أن الملاحظة الأولى التي لن تخطئها عين المتأمل في هذه العينة من ذوي العلل، هي أن الفئة الاجتماعية التي حظيت باهتمام المنشغلين بالموضوع في الثقافة العربية القديمة، إنما هي الفئة المحظوظة التي حصل لها من الشرف والسيادة والرئاسة والعلم؛ الأمر الذي مكَّنها من أن يكون اسمها راسخا في الذاكرة، محفورا في بطون كتب التاريخ. أما من عاكسه الحظ، ولم تسعفه إعاقته على أن يحقق ما يمكن أن يرفع من قيمته، فلم يدخل ضمن اهتمامهم.

---

(1) ـ نفسه، ص34.

(2) ـ ينظر مقاله المنشور بعنوان (حيوات الظرفاء وذو العاهات) في صحيفة الجزيرة، المملكة العربية السعودية، الثلاثاء 8 غشت 2006م، ع12367، على الرابط الإلكتروني الآتي:
http://www.al-jazirah.com/2006/20060808/ar2.htm

(3) ـ ينظر مقاله المنشور بعنوان (حيوات الظرفاء وذو العاهات) في صحيفة الجزيرة، المملكة العربية السعودية، الثلاثاء 8 غشت 2006م، ع12367، على الرابط الإلكتروني الآتي:
http://www.al-jazirah.com/2006/20060808/ar2.htm

ولا غرابة في ارتباط التأليف في موضوع العلل بالهمّ الترجَمي، إن علمنا أن خطاب الإعاقة في التراث مقترن في عمقه بكتب الأنساب والطبقات والتراجم والسير، الرامية إلى التعريف بالشخصيات التاريخية، ورصد أسمائها وألقابها وكناها ومظاهر شهرتها. وهذا ما يجعل بعض الشخصيات مثل الجاحظ ذاته، تعرف بألقابها المحيلة إلى العلة أكثر مما تعرف بأسمائها. ومن هذه الزاوية يرى الصفدي

أن من ألف قبله في الموضوع؛ كابن قتيبة، وابن الجوزي، اكتفيا بالترجمة للعميان الأشراف، ولم تستوعب تصانيفهم مجمل العميان. السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابيه (نكت الهميان..) و(الشعور بالعور). وكان من الممكن لابن الجوزي في تقديره "الزيادة على ذلك بأضعاف مضاعفة، لتأخر زمانه ووفاته على زمان ابن قتيبة ووفاته (..)، ولكن يمكن الاعتذار لكليهما بأنهما لم يضعا مصنفيهما لاستيعاب ذكر العميان ، وإنما ذكرا أشراف من كان أعمى"[1].

ولعل هذا التوجه في الترجمة لذوي العلل شبيه بالترجمة للشعراء عند المصنفين العرب القدامى. فقد اكتفى ابن سلام الجمحي (ت231هـ) وابن قتيبة (ت276هـ) –على سبيل التمثيل لا الحصر– بالترجمة لذوي الشهرة من الشعراء والفرسان والأشراف؛ مثلما يفهم من قول الأول: «ذكرنا العرب وأشعارها والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها (..)، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم ولا يستغنى عن علمه ناظر في أمر العرب»[2]، وقول الثاني: «وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جُل أهل الأدب»[3].

(1) ـ نكت الهميان..، ص4.
(2) ـ طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني جدة، د.ط، د.ت، 3/1.
(3) ـ الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف القاهرة، د.ط، د.ت، 59/1.

3.2- خطاب ذوِي العِلل وإشكالات الزَّمَن الراهِن:

يجد خطاب ذوي العلل في عصرنا الراهن منذ أواسط القرن العشرين نفسه أمام سلسلة من القضايا والإشكالات الجديدة، من أجلها قضية الحقوق والإدماج الاجتماعي. هكذا أنشأت وزارة الشؤون الاجتماعية المصرية سنة إحدى وخمسين وتسعمائة وألف إدارة للتأهيل المهني، جراء استفحال مشكلة التشوهات الجسدية والعيوب الخلقية والانعكاسات النفسية الناتجة عن الإصابة ببعض الأمراض المزمنة، وحوادث السير والشغل، وانعكاسات الحرب العالمية الثانية. وكان من أهداف هذه الإدارة اكتشاف إمكانات ذوي العلل، وتهيئتهم للاندماج في الحياة.

ولقد شكل تأهيل ذوي العلل وإعدادهم لاندماج الفاعل في المجتمع، هاجسا مؤرقا للدول العربية، لاسيما بعد التوقيع على الاتفاقية الدولية الخاصة بذوي العلل. ومن هذا المنطلق نشأت حركة فكرية وثقافية ذات أبعاد اجتماعية وسياسية تروم إدماج غير القادرين في المجتمع، مطالبة بضمان حقوقهم وإدماجهم في المجتمع، ولا أدل على ذلك من كثرة الجمعيات والمنظمات والهيئات الحقوقية وباقي فعاليات المجتمع المدني التي تبنت هذا الملف.

قام في هذا الصدد الباحث مختار حمزة بتشخيص سيكولوجية نماذج من أصحاب العلل؛ من قبيل الأعمى والمقعد والأصم ومشوه الوجه والمريض بالسل، وبناء اختبارات علمية خاصة بكل نموذج. والغاية من جهده العلمي هي قياس قدراتهم الذهنية ومؤهلاتهم الجسدية، مما يسمح بإدماجهم في المجتمع[1]. ولعل هذا الأفق الإدماجي -كما لمسناه عند مختار حمزة- نلمسه كذلك عند أحمد الشرباصي الذي أهدى كتابه (في عالم المكفوفين) "إلى الذين يعنون بشؤون المكفوفين، ويريدون لهم الخير، ويحاولون تحقيق

[1] - ينظر (سيكولوجية ذوي العاهات)، دار المعارف القاهرة، ط1، 1956م.

ذلك الخير لهم قدر استطاعتهم. وإلى المكفوفين الذين يبذلون جهودهم، ويثبتون وجودهم، ويحتلون أماكنهم الملحوظة في المجتمع..".

ولقد انخرط الكاتب قبل إصداره للكتاب في مشروع مجتمعي هادف إلى فتح أعين المجتمع والمسؤولين والرأي العام على قضية اجتماعية جديرة بالتناول ولفت الانتباه، وهي قضية ذوي العلل، لما ألقى أربع محاضرات عن المكفوفين بدار المركز العام لجمعيات الشباب المسلمين في القاهرة أواسط الخمسينيات من القرن العشرين. وكان الهدف منها لفت انتباه ولاة الأمور في الأزهر الشريف، ووزارة التربية والشؤون الاجتماعية والإرشاد القومي، والمؤسسات الاجتماعية والقومية والدينية في مصر وفي العالم العربي والإسلامي قاطبة إلى هذه الفئة الاجتماعية المضطهدة، دفاعا عن حقوقها وتثمينا لإمكاناتها وجهودها.

ثم إن حركة البحث العلمي لم يفتها أن تتوقف عند هذا الخطاب، وتحاول فهمه وتفكيك أنساقه الثقافية والجمالية. توقفت فدوى مالطي عند بعض القضايا من هذا النوع من قبيل الأحلام[1] والجنس[2] والكتابة[3] والجسد[4] في الثقافة العربية في صلتها بالعاهة، باحثة عن جذورها التاريخية وصلتها بذوي العلل. والجدير بالذكر أن ابن قتيبة كان منطلقه في إثارة موضوع العلل وأصحابها في كتابه (عيون الأخبار)، إنما هو

---

(1) - ينظر كتاب (عين الشمس: ثنائية الإبصار والعمى من هوميروس إلى بورخيس) لعبد الله إبراهيم، وكتاب (العمى والسيرة الذاتية: دراسة في كتاب "الأيام" لطه حسين) لفدوى مالطي دوكلاص، ومبحثها "الأحلام والعميان وسيميائية الترجمة" ضمن كتاب (بناء النص التراثي: دراسات في الأدب والتراجم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1985م، ص142-170.

(2) - ينظر مبحث "العمى والنزعة الجنسية: الأبنية العقلية التراثية في قصة يوسف إدريس "بيت من لحم"، ضمن كتاب (من التراث إلى ما بعد الحداثة)، ص229-240.

(3) - العمى في مرآة الترجمة الشخصية، ضمن كتاب (من التراث إلى ما بعد الحداثة)، ص267-315.

(4) - خطاب الإعاقة في النثر العربي القديم، ضمن كتاب (من التراث إلى ما بعد الحداثة)، ص125-135.

الجسد ذاته. إذ ميز في معرض حديثه عن النساء بين بابين متقابلين: باب الحسن والجمال[1]، وباب القبح والدمامة[2]، وباب الخلق[3]. ثم أدرج ضمن الباب الأخير سلسلة من العيوب الخلقية والعاهات الجسدية. وقد رسم لنا بذلك خريطة للجسد، متوقفا عند جل الأعضاء، راصدا محاسنها ومعايبها، مميزا بين ما يشوبها من علل وعيوب وآفات.

وسرعان ما انتقل الاهتمام العلمي بالجسد في المرأة والرجل والأدب والسينما إلى الاهتمام بظاهرة العاهات، مثلما ترى فدوى مالطي في قولها: "ومن المؤكد أن الناقد الواعي يلاحظ حركة تركيز الدراسات الإنسانية بأكملها على الجسد: جسد الرجل، وجسد المرأة، والجسد في الأدب، والجسد في السينما...إلى آخره. غير أن موضوع الاهتمام الآن قد انتقل عبر حركة جديدة من الجسد إلى ظاهرة العاهات"[4]. ولعل خطاب ذوي العلل لا يزال يخيم عليه طابع علمي طبي، مما يفهم منه أن "الخطاب النقدي لم يوف حتى الآن الجسد المعوق حقه بوصفه ظاهرة أدبية"[5]. لذا نزعت دراسات وأبحاث نقدية منزع إثارة قضية الإبداع عند ذوي العلل خاصة عند المكفوفين سدا لهذا النقص، فراحت تتحدث عن العاهة والخصوصية الإبداعية، وكانت الصورة الشعرية أحد المباحث الرئيسة التي ركزوا عليها.

رام نادر مصارّوه بناء ملامح الصورة الفنية التي تميز المنجز الشعري عند المكفوفين؛ باستقراء نماذج شعرية لشعراء عميان، واستجلاء أسسها الابتكارية التخيلية. هكذا رصد معالم المجاز في نتاجهم الشعري من ناحية الزخرف البديعي والكنائي والاستعاري والتشبيهي والتشخيصي، وبين قدرة الأعمى على ربط الصلة بين المجردات

(1) - ص19-32.
(2) - ص32-54.
(3) - ص55-66.
(4) - من التراث إلى الحداثة، ص135-136.
(5) - نفسه، ص127.

والمحسوسات، وإلباس المعاني صورا محسوسة، محددا العلاقة عندهم بين الحقيقة والمجاز، وحدود التداخل والتقاطع بينهما. كما توقف عند مظاهر الصورة الشعرية وأنماطها السمعية واللمسية والشمية والذوقية، فضلا عن علاقة الصورة باللون وتمثل الأعمى للألوان، وتوظيف تقنية الوصف وطبيعة اللغة، وتراسل الحواس وتظافرها في تشكيل معمار الصورة الشعرية، بوصفها وسيلة تعويضية لفقدان البصر، أضف إلى ذلك حدود التجديد والتقليد في بناء الصورة الشعرية عند العميان[1].

وذهب الباحث عبد الله أحمد الفيفي إلى أن الصور البصرية الشعرية التي أنتجها العميان تفوق في قيمتها التخيلية صور المبصرين، ذلك لأن تجربة العميان في مجال التصوير الشعري تكشف عن أصالة بارعة في البناء ومقدرة فائقة على التخييل. ثم إنها تجربة تشي بالعلائق الواصلة بين أنماط الصور التي يبتدعونها من ناحية الكثافة والقتامة والطابع السوريالي السوداوي، مما يدل على كونهم يصدرون من معين واحد، أسماه الفَيفي "نموذج التوحش". وبذلك يكون المصدر الحقيقي للإبداع عندهم ليس هو الحواس في حد ذاتها، بل الذات الشاعرة وتمثلها الثقافي لما حولها. إن "اكتشاف تفوق العميان على المبصرين في إبداع الصورة البصرية، يثير الانتباه إلى مناهل الفن الأصيلة والأسخى بهباتها لموهبة الفنان، النابعة من مكنونات الذات وتمثلها الثقافي"[2].

(1) - ينظر كتابه: شعر العميان: الواقع، الخيال، المعاني والصور الفنية (حتى القرن الثاني عشر الميلادي)، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2008م.

(2) - الصورة البصرية في شعر العميان، عبد الله أحمد الفيفي، النادي الأدبي بالرياض، ط1، 1996م، ص381.

3- المستوى التحسيني:

1.3-تحدي العلة:

لَئن رُفع الحرج عن ذوي الحاجات الخاصة من العُميان والعُرجان والمرضى في حدود طاقاتهم، فإن ذلك لا يعني عطَالتهم وعجزهم الكلّي عن تقديم خدمات جليلة للمجتمع. وبيان ذلك أنه غالبا ما يتم تعويض الملَكة المعطلة بملكات أخرى؛ كأن تُعوَّض عاهة البصر بالبصيرة عند الأعمى تمثيلا، فيعرَف بنظرته الثاقبة وتفكيره السديد، على نحو ما نجد عند هوميروس، ومعن بن أوس، وحسان بن ثابت، وبشار بن برد، وسليمان بن مسلم بن الوليد، وعلي بن جبلة الكوك، وأبي بكر الرازي، وأبي العلاء المعرّي، وابن سيده، والقاضي الفاضل، وموفق الدين مظفر، والعكبري، وزين الدين الآمدي، وجون ميلتون، وخورخي لويس بورخيس، وطه حسين، الذين لم تمنعهم عاهة العمى من أن يخلدوا أسماءهم، ويتركوا بصماتهم منقوشة في التاريخ البشري.

لم تعق العلل إذن أصحابها، وتمنعهم من ممارسة حياتهم اليومية ممارسةً طبيعية، بالرغم من آثارها وانعكاساتها السلبية عليهم، كما توقفنا سلفا عند بعض جوانبها، بل كانوا يحاولون التفاعل الإيجابي معها. فها هو علي بن جَبَلة الذي جمع عاهة البرص إلى العمى، لم تمنعه عاهتاه من إظهار مشاعر الحب والتعبير عنها لحبيبته. إذ «كان مع عمائه وشنعة برصه يتعشق جارية، ويتعشقها شاعرة ظريفة أديبة. وكان أنشد حميد بن عبد الحميد شعرًا، فوهب له مائتي دينار، فانصرف من دار حميد إلى منزل المعشوقة، فصب الدنانير في حجرها. ثم مضى إلى منزله، وليس فيه درهم ولا شيء قيمته درهم. وكان أحسن خلق الله إنشادًا، ما رأيت مثله بدويًا ولا حضريًا، وهو القائل:

ودَمٍ أهْرقْتُ منْ رَشأٍ لمْ يُرِدْ عقْـلًا علَى هَدَرهْ

إنما الدُّنْيا أبُو دُلفٍ بيْن مَغزَاهُ ومُحْتضرَه»[1].

كما لا تمنع الإعاقة صاحبَها من الرد على مَن مسَّه بسوء؛ حيث روى أبو عبيدة والهيثم بن عدي خبرا، قوامُه أنه «عبث شبة بن عِقال بعبد الله بن عياش على باب الخليفة، وكان على كف عبد الله وضَح فقال: ما هذا على ظهر كفك يابن عياش؟ قال: سلْح النعامة. قال: وكان شبةُ يلقب بسلْح النعامة. وأنشدوا:

فَضح المنابرَ يوْمَ يخْطُبُ قائمًا سلْحُ النعامة شبةُ بنُ عقالِ»[2].

ومن المصابين مَن يكون راضيا بعلته، فيواجهها في مواقف دقيقة مواجهة جريئة وشجاعة. ومن الإشارات السردية التي تجسد موقفا من تلك المواقف، ما يتصل بأحد المفاليج وهو ظالم بن عمرو بن سفيان المعروف بأبي الأسود الدؤَلي. فقد «دنا من عبيد الله بن زياد يسارّه، فخمَّر عبيد الله أنفه، فجذب يده جذبا عنيفا، ثم قال: إنك والله لا تسود حتى تصبر على سِرار الشيوخ البُخْر»[3].

وبالرغم من موقع العلة في نفوس أصحابها، وأثرها في إعاقتهم وشلّ حركتهم وتثبيط عزائمهم، إلا أنهم لا يرضخون لضغوطها ولا يستسلمون لعراقيلها، بقدر ما يتجاوزونها فيقتحمون عالم الحياة، فاستطاعوا بذلك أن يحققوا ما لم يحققه الأسوياء. صحيح أن منهم من أصيب بالعلة بعد أن حقق ما حققه في الحياة، من شعر وفروسية، وصحيح كذلك أن من العاهات ما كان يسيرا لا يقف في وجه صاحبها، ولا يعيقه تحمسه وفعله ونشاطه. ولكن ذلك لا ينفي –بحال من الأحوال– أن نسبة كبيرة من هؤلاء واجهوا عاهتهم، فحققوا ما حققوه في حياتهم.

---

(1) - كتاب البرصان...، ص 133-134.
(2) - كتاب البرصان...، ص 141.
(3) - نفسه، ص 437.

شملت أنشطة ذوي العلل ميادين مختلفة برعوا فيها، فنافسوا الأسوياء وافتخروا بعاهاتهم واعتدوا بأنفسهم. ومن جملتها الفروسية والشجاعة في الغزوات والفتوح والحروب، والفصاحة والبلاغة والخطابة ونظم الشعر، والقيادة والزعامة والرئاسة والملك، ونيل الشرف والعلا، ورواية الأخبار والأنساب والعلم والمعرفة؛ كالضلوع في علم الكلام والفقه والبلاغة وغيرها، مثلما تكشف عنه تراجمهم. فممَّن برع في الفروسية والغزوات، الفارس السلمي وشيطان بن عوف بن مزيد. ونال الرئاسة والشعر كذلك، بلعاء بن قيس بن يعمر.

ومن الشعراء الذين لم تمنعهم إعاقتهم من نظم الشعر الحارث بن حلزة، الذي يعد واحدا من أصحاب المعلَّقات المعروفة، وسُوَيد بن أبي كاهل وعلي بن جبلة. وبرع في الخطابة والفصاحة قيس بن خارجة بن لأم وابن الفجاءة. وممن نال الملك والرئاسة والزعامة والقيادة على عاهته، أبو أسيْد عمرو بن هداب المازني، والربيع بن زياد، ويربوع حنظلة. ومن العلماء أصحاب العاهات أبو كلدة الذي ضلع في علم الكلام على عرجه، وأبو العلاء يزيد بن الشخير الذي سما نجمه في الفقه والبلاغة. ومن رواة الأخبار والأنساب، عبد الله بن عياش الهمذاني الصحابي المشهور.

ثم إن ذوي العلل في زمننا الراهن نالوا حظوة واهتماما بليغين، ولا أدل على ذلك من أن تقدم المجتمعات ورقيها غدا يقاس بمعايير؛ من جملتها درجة إدماجهم في المجتمع وتأهلهم للانخراط الإيجابي والفاعل فيه. وهكذا حصل التفات إلى مؤهلات غير الأسوياء ومهاراتهم، وتم الشروع في إعداد البنيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المستجيبة لمطالب هذه الفئة واحتياجاتها الإنسانية. ونلمس ذلك في تأمين حقوقهم المختلفة في الصحة والرياضة والتكوين، وإعداد البرامج التعليمية والخدمات الإعلامية المناسبة، ووضع المشاريع التنموية التي تسهم في إشراكهم في المجتمع، وسن التشريعات

والقوانين التي تيسِّر تفاعلهم معه. ومن شأن هذا الاهتمام رد الثقة بالذات إليهم، ومنحهم الكرامة، وتوفير المناخ الملائم لكشف وطاقاتهم وإمكاناتهم.

ويمكن رصد المسالك التي يسلكها أصحاب العلل من العرب، عند تحسين عاهاتهم والاحتجاج لها على الشاكلة الآتية:

2.3- الفخر بالعلة:

يعِد الجاحظ المتلقي منذ مطلع كتابه، بأنه سيتحفه بالأشعار والأخبار التي يفخر فيها ذو العاهة بعاهته ويحتجُّ لها. يقول في ذلك: «وسأنشدك إن شاء الله بعض ما افتخر به الأعمى واحتج به الأعرج، قبل أن تصير إلى قراءة الجميع»[1]. ومن الدلائل التي ساقها في هذا الباب أبو الدهماء الأعرج الذي «عيرته امرأته بالعرج، فقال:

ما ضرَّ فارسُهمْ في كُلِّ مَلحَمةٍتزحّفُ العُرْج بينَ السَّجْف والنَّضدِ

ومن ذلك أيضا ما جسَّده أبو طالب بن عبد المطلب في أبيات شعرية، تغمزه فيها إحدى نسائه بالعرج:

قالتْ عرجت فقَدْ عرجْت فمَا الذِي أنْكرتِ من جَلدي وحسْن فَعَـالي
وأنَا ابْنُ بجـدتِها وفي صُيّـابهَا وسليـلُ كـل مسـوَّد مفْضَـالِ
أدَع الرَّقـاحَـة لا أريدُ نمَـاءَهَا كيْمَا أفيدَ رَغـائبَ الأمْـوَال
وأكفّ سهْمِي عَنْ وجُوهٍ جمَّـة حتَّى يصيبَ مَقاتـل البُخَّالِ»[2].

والشواهد على هذه النزعة الفخرية الحجاجية عند العرب، أكثر في الحقيقة من أن تحصى؛ حيث «فخروا بالعمى وذلك كثير، واحتجوا بالعرج وذلك غير قليل»[3].

وكما يدافع الشاعر عن عاهته ويحتج لها، نجد من المقربين له من ينوب عنه في ذلك، كما احتج سيار بن رافع الليثي لصديقه أوفى بن موءلة الأعرج في بيتين

(1) - كتاب البرصان..، ص 45.
(2) - نفسه، ص 46.
(3) - ص8.

سابقين: (رأيتُ أوْفى بُعيدَ الشيبِ من كثَبِ..). ومن ذلك أيضا أن أرطأة بن سُهية لما هجا شبيب بن البرصاء بقوله:

فلو كنتَ عوفيًا عميتَ وأسهلتْكذاك، ولكن المريبَ مريبُ

"تمنى كل شيخ من بني عوف أن يعمى"[1]، كما يمكن أن نومئ إلى الصورة الوردية التي رسمها بشار بن برد وغيره من الشعراء العميان في أشعارهم لعماهم.

3.3-التقابل:

يلتجئ صاحب العاهة أحيانا إلى عقد مقابلة وموازنة بين وضعيتين يضعهما المتلقي أمامه، فيترك له حق اختيار إحداهما. وتكون نتيجة الاختيار بالضرورة تفضيل حالة العاهة والاقتناع بها. وهذا ما يجسده الشاهد الشعري السابق لأبي الدهماء؛ فنحن نلحظ كيف قابل بين قيمتين إحداهما قدحية، وهي عبارة عن عيب فيه (العرج)، وأخرى مدحية، وهي الفروسية. ولما كان صاحب العاهة فارسا، فإن الأمر لا يضيره في شيء إن كان أعرج. إن نقل انتباه المتلقي من قيمة سلبية إلى أخرى إيجابية، هدفه مداراة العاهة والاحتجاج لصاحبها.

ونجد هذه السمة التقابلية كذلك عند أبي العملّس الذي حاجج امرأته، وأبي طالب بن عبد المطلب الذي عيّرته إحدى نسائه بالعرج، فقابل بين العرج وبين مكارمه وفضائله وأفعاله. ونجدها كذلك في قول بشّار الأعمى، في أبيات أفردها لتصوير عاهته وتجسيد أبعادها الإيجابية والسلبية، وعند المحجّل الذي كان بساقيْه برص. ومن ذلك أيضا ما حصل للطائي الأعرج الذي خطب امرأة، «فشكت عرجه إلى جاراتها، فأنشأ يقول:

تشكُو إلى جَـاراتها وتَعيبُني فقالت: معـاذَ الله أنكح ذا الرِّجلِ

فكَمْ منْ صحيحِ لوْ يوَازن بيْنَنا لكنَّا سَواءً أو لمـالَ به حِمْلي»[2].

ولا نعدم في المشهد الثقافي المعاصر معالم البنية التقابلية السابقة التي اتخذت إطارا فنيا لإثارة موضوع الإعاقة. نستحضر في الخطاب السردي الذي شيده يوسف

(1) - ص9.
(2) -كتاب البرصان..، ص37.

إدريس على أسس التخييل الأدبي في قصة (بيت من لحم)، صورة الأعمى الذي يمثل في القصة قطب رحى البيت ودعامته الأساس، بالرغم من عماه بعد خلو البيت من صاحبه الذي مات منذ عامين. وقد كان الأعمى هو من يقطع حبل الصمت في البيت بتلاوته وقراءته ترحما على الفقيد عصر كل جمعة. "ليس فقط الصوت الوحيد الذي كان يقطع الصمت، ولكن أيضا الرجل الوحيد الذي كان، ولو في الأسبوع مرة، يدق الباب، بل أشياء أخرى يدركن، فقير مثلهن هذا صحيح، ولكن ملابسه أيضا نظيفة، وصندله دائما مطلي، وعمامته ملفوفة بدقة يعجز عنها المبصرون، وصوته عميق رنان"[1].

وبفضله انقلبت حياة الأرملة بعد زواجها منه –شأنها في ذلك شأن بناتها الثلاث اللواتي يوزع عليهن خدماته الجنسية بتواطؤ مع الأم– رأسا على عقب، فقد استحالت حالها من صمت وجمود إلى ضحك وتلألؤ وإشراق. كان قبل الزواج يرتاد البيت فيقطع فيه حبل الصمت، بتلاوته وقراءته للقرآن الكريم يوم كل جمعة، ويشيع فيه بعد الزواج روح الإمتاع والإيناس بترداده البارع لأغاني أم كلثوم وعبد الوهاب، وصوته الأجشّ العذب الذي يبعث السعادة والحياة في البيت. وبذلك عوض الأرملة "عن سنين المرض والعجز والكبر بغير أوان. الصمت تلاشى، وكان إلى غير رجعة. ضجيج الحياة دبّ"[2].

4.3–القلب:

للعربي جرأة وقدرة على إظهار عيوبه، دونما مُواراة أو خجل. ثم يقلب الصورة على نقيضها؛ بجعل المتلقي يغير صورته ونظرته للعاهة، فيلبسها لبوسا عجيبا، ويضفي عليها طابعا جماليا. إذَّاك تنتقل العاهة من صورتها القدحية التي تشمئزّ منها النفس ويستهجنها الذوق، إلى صورة مثالية جميلة، تنمحي فيها العيوب والمثالب. ولم يكن قلب الحقائق وإخفاء المساوئ والنقائص، وتحويلها إلى ما يناقضها من محاسن ومكارم،

(1) ـ بيت من لحم ليوسف إدريس، ضمن بيت من لحم وقصص أخرى، مؤسسة هنداوي سي آي سي، ط1، 2017م، ص8.
(2) ـ نفسه، ص9.

لِيتأتى للعربي لولا امتلاكه سلطة الكلام، وخبرته بأسرار الخطاب، يوجهه ويطوّعه خدمة لمقاصده البلاغية.

ولا مراءَ في أن العلة تبعث في أساسها على السخرية والهزءِ والضحك والتندّر والتفكُّه، لكنَّ صاحبها –بجرأته وشجاعته– يكون قادرا على بلورة خطاب حول عاهته، يطفح رضى، ويفيض اقتناعا واستحسانا وقبولا. يقول الجاحظ في هذا المساق: «وإذا كان الأعرابي يعتريه البرص، فيجعله زيادة في الجمال ودليلا على المجد، فما ظنك بقوله في العرج والعمى، وهما لا يُستقذران ولا يُتقزز منهما ولا يعديان ولا يظن ذلك بهما، ولا ينقصان من تدبير، ولا يمنعان من سؤدد»[1].

والحق أن تزييف الحقائق، وقلب المواقف إلى أضدادها ليس حكرا على غير الأسوياء، بقدر ما يسِم الأسوياء كذلك. ذلك أن الجبن والفرار من الحرب بوصفه عيبا وفعلا مذموما، تمجّه الطباع وتذمّه النفوس في الثقافة العربية على الأقل، يصير في النسق الثقافي العربي أحيانا محمدة ومطلبا ضروريا مثلما يرى الجاحظ في قوله: «وقد يفر الأعرابي في الحرب فلا يفر بالجبن عن الأعداء، وبالنكول عن الأكفاء، بل يُخرج لذلك الفرار معنى، ويجعل له مذهبا، ثم لا يرضى حتى يجعل ذلك المفخر شعرا، ويَشْهَره في الآفاق»[2]. وحتى إن أقر بالعيب، واعترف بصدوره منه، فإنه يحد من غلوائه، ويخفف من حدته على نحو من الأنحاء[3].

ومن علامات قلب الحقائق كذلك ما تثبته الإشارة السردية المرتبطة بأحد أيام العرب، وهو يوم أبي فُدَيك. وتفصيل ذلك أنه «لما انهزم الناس يوم أبي فديك، كان عباد بن الحصين في المنهزمين، وهو يصيح بأعلى صوته: أنا عباد بن الحصين. فقال له بعض المنهزمين: فلمَ تنوه باسمك على هذه الحال؟ قال عباد: لكيْلا تركَبني غَمْرة»[4].

---

(1) ـ كتاب البرصان..، ص37.
(2) ـ نفسه، ص 38.
(3) ـ نفسه، ص 40.
(4) ـ نفسه، ص 42.

فالفرار بعد الهزيمة وصمة عار في الثقافة العربية على الأقل، لا يمكن الفكاك منها أبد الدهر. لكن ذكاء عبّاد وفطنته ومكره، مكنه من أن يجد لنفسه مخرجا، وهو مناداة الناس بأعلى صوته، في موقف يقتضي منه ستر أمره حتى لا يفتضح. ولما سئل عن السر في ذلك، كان جوابه أنه خشي من الغمرة التي تعني الغُمور، وهو نقيض الشهرة.

5.3-التصوير البلاغي:

يستثمر ذو العاهة قدراته البلاغية وبراعته الخِطابية في تصوير عاهته تصويرا بديعا، يفقدها طاقتها القدحية، ويصرف الأنظار عنها إلى فصاحة صاحبها. نقل عن بلعاء بن قيس المصاب بالبرص، أنه «كان يقول: سيف الله جلاه»[1]. وهو تعبير استعاري؛ له من الحسن والطلاوة والجمال، ما يجعله قادرا على صرف المخاطب، وحجب عينيه عن برص صاحبه. إذ ينقله من عالم العاهة –بما تقتضيه من مشاعر التقزز والاشمئزاز والشفقة والنفور– إلى عالم الحرب، وما تقوم عليه من إشهار السيف وسلّه من غمده. وتلك ملكة كلامية مشتركة بين العرب كبارا وصغارا. ولنا أن نتأمل الحوار الفكِه الدائر بين عبد الملك بن قريب الأصمعي والغلام الهزيل، «قلت لغلام أعرابي: ما لي أراك ضعيفا نحيفا، وصغير الجسم قليلا مهزولا؟ قال: قرْقَمِني العز»[2].

وتعليق الجاحظ على هذه النادرة، جاء على شاكلة قوله: «وليس العجب في قوله: إن الأعراق تُضوي، وإنما العجب في قوله: إن العز يُقرقم؛ لأن الأول قد قال:

فتىً لمْ تلدْهُ بنْتُ عَمٍّ قَريبةٌ فيَضْوَى، وقَد يَضْوَى رَدِيدُ القَرائِبِ»

وقوله: «فليس العجب من ذكرهم الضَّوى، إذا ترددت الأولاد في القرابات، وإنما العجب في قولهم: العز يُقَرْقم؛ لأن الأعرابي حين ابتلي بالدمامة والقلة، ثقل عليه أن

(1) - المعارف، ص 580.
(2) -كتاب البرصان..، ص 43.

يقرّ بالذلة والضعف. فاحتجَّ لذلك وأحال الناس على معنى لا يدركونه بالمشاهدة، وهذا من ذكائه ودهائه»[1].

وشبيه بهذا، ما حصل لزيد بن صوحان مع أعرابي؛ لما عجز عن فك المعادلة القائمة على إعجابه بفصاحة زيد وتوجّسه ريبةً من بتْر يده. فجلّى له الحقيقة، وهتك حجاب الشك بتعبيره البليغ (إنها اليُسرى يا أعرابي). وتلك خاصية لا تقتصر على مداراة العاهة والاحتجاج لها، بل هي شاملة للمناحي المختلفة لحياة العرب، «فبهذه النفوس – حفظك الله– حفظوا أنسابهم، وتذاكروا مآثرهم، وقيدوا لأنفسهم بالأشعار مناقبهم، وحاربوا أعداءهم، وطالبوا بطوائلهم، ورأوا للشرف حقا لم يره سواهم، وعملوا على أن الناس كلهم دونهم»[2].

خلاصة:

نخلص من تناولنا للخطاب الدائر على فئة ذوي العلل؛ سواء كانوا مداره أو أسهموا في إنتاجه، إلى أنه جدير بالفحص والدرس والتحليل. وذلك لتشعب مداخله ومستوياته وأبعاده، والتباس مكوناته وعناصره، وغنى ما يحضنه في ثناياه من دلالات ومعان وقيم. ويرجع ذلك في عمقه إلى اتساع سياقه المكاني وامتدار مداره الزماني، الأمر الذي يفضي إلى تنامي أسئلته وتجدد إشكالاته وتعدد زوايا النظر إليه عبر الدهور والأزمان.

ولئن كانت المنجز النصي الحديث والمعاصر المرتبط بهذا الخطاب يصطبغ عموما بصبغة اجتماعية، بنزوعه منزع تثمين كفاءات ذوي العلل، ومحاولة تأهيلهم وإدماجهم في المجتمع، والإفادة من جهودهم وخدماتهم في سبيل خلق الثروة وتحقيق النهضة والمشاركة في التنمية المستدامة، فإن كتابات القدماء وتصانيفهم سبحت في مدارات معرفية متنوعة؛ منها المدار التأريخي المتصل بالتعريف بالشخصيات التاريخية

(1) - كتاب البرصان..، ص 44.
(2) - نفسه، ص 45.

وتوثيق إنجازاتها العلمية والحياتية وسرد جوانب خفية من حيواتها، ومنها المدار الثقافي المشبع بنزعة شعوبية، يروم رسم صور قدحية لتلك النماذج البشرية تكشف عن معايبها ونقائصها الخلقية والجسدية، ثم المدار الأخلاقي والإصلاحي المراهن على ربط مفهوم الأدب ووظيفته بالارتقاء بالإنسان، والاعتراف بالفضل لذويه، ونزع مكامن الضعف والقصور والعيب في المجتمع، والإسهام في تغييره واستشراف آفاقه المستقبلية.

وعليه، لم يكن القدماء في تناولهم قضايا ذوي العلل وإشكالاتهم مجرد متنذِّرين متفكِّهين هازلين، أو مترجمين مؤرخين نسّابين، أو مكرِّرين مردِّدين جَامعين، كما قد يتبادر إلى الذهن، بل كانوا مسترشدين بخطوات منهجية راسخة وأسس معرفية مكِينة، محكومين بخلفيات معرفية متنوعة ومرجعيات فكرية متباينة، يصدرون عنها في بلورة تصوراتهم ورؤاهم تجاه الموضوع.

وإذا كان للمرجعيات المعرفية والجمالية التي ساقها بعضهم؛ من أمثال الهيثم بن عدي، وابن قتيبة، وعبد الرحمن بن الرحمن بن الجوزي، وغيرهم، حول خطاب العلل، وأثر أصحابها في الثقافة العربية بعامة، والثقافة الأدبية والجمالية بخاصة، الفضل في التنبيه إلى الموضوع وأهميته، فإن لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وصلاح الدين الصفدي الجهد العلمي الأوفر في بلورة خطاب ذوي العلل، وإقامة دعائمه المعرفية والفنية.

فقد كان الجاحظ في النصف الأول من القرن الهجري الثالث (عصر التدوين) وفيّا لمنطلقاته الموسوعية، منسجما مع اقتناعاته المعرفية، ملتزما بخطته المنهجية، لما ارتأى رسم صورة شفِيفة لخطاب أصحاب العلل على اختلاف أصنافها وأنواعها، تستجلِي ملامحهم ورؤاهم ومواقفهم من الذات والآخر. وهي صورة ما كان لها أن تتحدد أبعادها وتتشكل معالمها، لولا براعته البيانية وقدرته البلاغية على استنطاق الأنماط التعبيرية والأشكال الأدبية التي جسَّدتها، ولولا تفاعله القوي مع محيطه وواقعه المعيش كذلك، ومخالطة أبناء جلدته على تنوع مراتبهم ومكانتهم العلمية.

ثم جاء صلاح الدين الصفدي في القرن الهجري السابع (عصر تحصين الذات وتثمين الموروث)، سالكا مسلكا منهجيا دقيقا يستلهم روحه من العلوم العقلية والمنطقية الوافدة، فبنى خطاب ذوي العلل في (نكت الهميان) بناء برهانيا قائما على المقدمات والنتائج، دارسا فيه علة العمى دراسة معجمية واصطلاحية وافية، موردا حقائق علمية وفلسفية وتاريخية قيمة مرتبطة بها، قبل أن يستقصي تراجم العميان وأخبارهم وأصنافهم، ويتعقب الآثار الأدبية المختلفة التي تعكس مناحي شتى من شخصياتهم وحيواتهم، ونماذج الأخبار والطرائف الدالة على نبوغهم وعبقريتهم.

المصادر والمراجع

ـــــــــــ، البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف القاهرة، ط7، د.ت.

ـــــــــــ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1965م.

ـــــــــــ، الرسائل، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط1، 1964م.

ـــــــــــ، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف القاهرة، ط4، د.ت.

ـــــــــــ، كتاب البُرصَان والعُرجَان والعُميَان والحُولان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، ط1، 1990م.

ـــــــــــ، من التراث إلى ما بعد الحداثة، المركز القومي للترجمة القاهرة، ط2، 2009م.

ـــــــــــ، نكت الهِميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية بمصر، طبع بأمر اللجنة التحضيرية للمؤتمر الرابع لتحسين حالة العميان، سنة 1329هـ.

الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمه الحلبي، دار المعرفة بيروت، ط5، 2008م.

ابن الجوزي: تلقيح فُهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت، ط1، 1997م.

ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني جدة، د.ط، د.ت.

ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر بيروت، ط2، 1969م.
ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف القاهرة، د.ط، د.ت.
ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط3، 1939م.
أبو سفيان مصطفى باحو: العلة وأجناسها عند المحدّثين، مكتبة الضياء طنطا، ط1، 2005م.
أحمد الشرباصي: في عالم المكفوفين، مطبعة نهضة مصر القاهرة، ط1، 1956م.
أحمد بن علي بن بابه: رأس مال النديم في تواريخ أعيان أهل الإسلام، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر خريسات، مركز زايد للتراث والتاريخ أبو ظبي، ط1، 2002م.
الجاحظ: البخلاء، تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2001م.
زكرياء بن محمد بن محمود القزويني: مفيد العلوم ومبيد الهموم، تحقيق وتقديم محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1985م.
صلاح الدين الصفدي: الشعور بالعور، تحقيق عبد الرزاق حسين، دار عمار للنشر والتوزيع عمان، ط1، 1988م.
عبد الله أحمد الفيفي: الصورة البصرية في شعر العميان، النادي الأدبي بالرياض، ط1، 1996م.
فدوى مالطي دوكلاص: بناء النص التراثي: دراسات في الأدب والتراجم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1985م.
مختار حمزة: سيكولوجية ذوي العاهات، دار المعارف القاهرة، ط1، 1956م.
نادر مصاروة: شعر العميان: الواقع، الخيال، المعاني والصور الفنية حتى القرن الثاني عشر الميلادي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2008م.
يوسف إدريس: بيت من لحم وقصص أخرى، مؤسسة هنداوي سي آي سي القاهرة، ط1، 2017م.